ألكسندر دوماس (الأب)

في خدمة الملكة

رواية

تقديم ومراجعة

د. أنور عبد العزيز

الكتاب: في خدمة الملكة.. (رواية)

الكاتب: ألكسندر دوماس (الأب)

تقديم ومراجعة: د. أنور عبد العزيز

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

دوماس ، ألكسندر

في خدمة الملكة.. (رواية) / ألكسندر دوماس (الأب)، تقديم ومراجعة: د. أنور عبد العزيز

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٥٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٠ – ٠٢ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٠٥٨ / ٢٠٢٠

في خدمة الملكة

رواية



مقدمة

ذكر الكاتب الفرنسي ألكساندر دوماس الإبن إنه دخل ذات مرة إلى حجرة أبيه ألكساندر دوماس الأب فوجده منهمكاً في القراءة، فسأله:

ـ ماذا تقرأ يا أبي؟

ـ الفرسان الثلاثة.

ـ روايتك

ـ إنها روايتك.

ـ نعم، فقد قد وعدتُ نفسي أنني عندما أشيخ وأكبر سأعطي نفسي الفرصة كي أقرأ هذه الرواية التي حققت كل هذه الضجة.

ـ وكيف وجدتها؟

ـ وجدتها رواية مبهرة، مبهرة جداً.

***

ولعل افتتان ألكساندر دوماس الأب بروايته "الفرسان الثلاثة" هو الذي دفعه للعودة إليها ثانية مستعينا بأجوائها وبعض شخصياتها في

كتابة رواية ثانية هي " في خدمة الملكة"، وقد نشرت "الفرسان الثلاثة" لأول مرة في عام ١٨٤٤ وحققت نجاحا كبيرا ، فأصبحت واحدة من أشهر الأعمال الأدبية الفرنسية والعالمية حيث ترجمت لمعظم لغات العالم، وتم إعداد عشرات الأفلام والعروض المسرحية عنها بكل اللغات، وهي شهرة ربما لم تحققها رواية فرنسية أخرى سوى "الكونت دي مونت كريستو"، وهي أيضا لنفس الكاتب.

***

ولد دماس ديفي دي لا بيليترا الذي عرف فيما بعد باسم ألكساندر دوماس في الرابع والعشرين من يوليو عام ١٨٠٢م، في قرية تدعى فيلير كوتريتس، والده كان ماركيزاً في دوقية أورليان بفرنسا، والدته لويز دوماس، ذات أصول أفريقية من الكاريبي، فأمه كانت من الأرقاء وكانت مملوكة لأبيه، وحدث أن أصيب والده بالحمى ، ومات على أثرها تاركا عائلته في ظروف مادية صعبة. فلم يكمل ألكسندر دوماس تعليمه النظامي، ولكن شغفه دفعه لمواصلة القراءة، وكانت والدته تروي له بطولات والده العسكرية وشجاعته أثناء حكم نابليون، مما ساعده ذلك في اثراء خياله، فتكونت لديه مساحة واسعة من قصص البطولات والمغامرات التي دعمت موهبته ككاتب..

وقد أخبرته والدته أن نابليون وزوجته جوزفين وعدا الجنرال، أي والد ألكسندر دوما، بأنهما سيكونان شاهدي تعميد مولودهما ، وهذا

الوعد كان من المفترض أن يتحقق قبل سفر الأب ضمن حملة نابليون على مصر، لكنهما لم يفيا بوعدهما ، إلا أن دوما قرر بطريقة لا إرادية أن يتمم ما لم يستطع أبوه القيام به أي أن يصبح نابليون الحقيقي الذي لم يكن بونابرت سوى ظله وستكون لكتبه بهاء قوة أبيه الجسدية وحركاته الرائعة الرشيقة المفعمة بالحماسة والأبهة كالجيوش الامبراطورية وسترافقه دائماً صورة والده عبر الذكرى.

وهكذا وصل دوماس إذاً إلى المجتمع الأدبي والبورجوازي بدم خليط يحمله من جدته السوداء وبالحمية والحماسة والقوة التي ورثها عن أبيه الجنرال الذي خلّده على أي حال في شخصية الفارس بورتوس وكرّس له تسعة عشر فصلاً في كتابه "مذكراتي".

***

انتقل توماس ألكسندر في طفولته إلى فرنسا مع والده ، حيث تلقى تعليمه في المدرسة العسكرية وانضم إلى الجيش عندما كان شاباً ، وحظت الأسرة بسمعة الوالد المتميزة ورتبته الأرستقراطية بالرغم من حالتهم المادية الصعبة مما ساهم في تقدّم ألكسندر دوما في حياته، وقد انتقل وهو في العشرين من عمره إلى باريس سنة ١٨٢٢ بعد استعادة المَلَكية ، وشغل هناك منصباً في القصر الملكي في مكتب لويس فيليب، دوق أورليان.

اتخذ توماس ألكسندر لقب والدته (دوماس) بعدما مات والده ، وتمت ترقيته إلى رتبة جنرال في سن الـ ٣١، وهو أول شخص تنحدر أصوله من أفارقة الأنتيل يصل إلى تلك الرتبة في الجيش الفرنسي. شارك في الحروب التي صاحبت الثورة الفرنسية، وكذلك كجنرال عام في جيش البرانس وكان أول رجل أسمر البشرة يتولى ذلك المنصب ، لكنه فقد الدعم الذي كان يتلقّاه بحلول العام ١٨٠٠م وطالب بالعودة إلى فرنسا على الرغم من كونه جنرال تحت قيادة بونابرت في إطار الحملات على إيطاليا ومصر. عند رجوعه، أُجبرت سفينته على أن ترسو في ميناء تارانتو، بمملكة نابولي، حيث تم احتجازه هو وآخرين كأسرى حرب.

أثناء عمله لدى دوق أورليان، بدأ دوماس بكتابة مسرحيات ومقالات للمجلات. تم إنتاج أول مسرحياته "هنري الثالث وبلاطه" عام ١٨٢٩م عندما كان يبلغ من العمر ٢٧ عاماً ولاقت الكثير من الاستحسان، وفي العام التالي حظت مسرحيته الثانية كريستين بذات الشعبية..

ومن المعروف أن مسرحياته هي التي حققت له الشهرة ودرت عليه المال الوفير وليس رواياته، وقد شارك ألكساندر دوماس عام ١٨٣٠م في الثورة الشعبية التي أطاحت بالملك شارل العاشر وأتت بدوق أورليان ليجلس بدلاً منه على العرش حيث حكم تحت لقب لويس فيليب، الملك المواطن.

الشغف الوحيد الذي رافق الكساندر دوماس طوال حياته هو شغفه بالنساء، وقد كتب في مذكراته: "لديّ عشيقات كثيرات وهذا بدافع انساني خالص، لأنه لو كانت لي عشيقة واحدة لقضت نحبها في خلال ثمانية أيام".

فهذا الرجل الضخم كان دون جوان عصره الذي لا يضاهيه ربما كان فيكتور هوجو هو الوحيد الذي نافسه على هذا العرش، عشيقاته كن كثيرات ولا يحصى عددهن. وكان يبدلهن كما يبدّل ثيابه وأغلبهن كن من غير المشهورات.

وكان دوماس معجباً بشكل خاص بالممثلات، وكان يوقع في حبائله بمن يشاركن في مسرحياته، ومن المعلوم أنه استوحى من علاقته بالشاعرة ميلاني والدور مسرحيته "انطوني". ولم يتزوج دوماس إلا مرة واحدة، وزوجته هي الممثلة إيرا فيرييه التي رافقها لسنوات قبل الزواج. لكن زواجهما لم يدم طويلا فانفصلا بعد فترة قصيرة.

أنجب دوماس كثيرا وأولاده الثلاثة المعروفون هم ثمار علاقات غير شرعية وهم: الكسندر دوماس الابن ولد عام ١٨٢٣م وهو ابن خياطة تدعى كاترين لابي، وهو كاتب روائي شهير كأبيه وللتمييز بينهما خاصة وأنهما يحملان الإسم نفسه أصبح أحدهما الأب والثاني الابن، وأما الثانية فهي ماري المولودة عام ١٨٣١م وهي ابنة الممثلة بيل كرلسامر،

والثالثة هي ميكاييلا المولودة عام ١٨٦٠م وهي ابنة شابة صغيرة تصغر الكسندر دوماس بأربعين عاماً وتدعى اميلي كوردييه.

وقد عُرف عن دوماس كرمه المفرط ، ففتح بيته لأصدقائه على الدوام، وحبه للطعام والطبخ نابع في جزء كبير منه من حبه لأصدقائه ، كان الطبخ بالنسبة اليه وسيلة لإرضاء شغفه بالصداقة. وكان خدم الكسندر دوماس يقدمون الطعام للآخرين فيما يذهب للعمل لساعات طوال. وأحد انجازات دوماس الأخيرة يتمثل في كتابة "القاموس الكبير للطبخ" الذي أراد أن يكون تتويجاً لعمله الأدبي، وقد بدأ عام ١٨٦٩ في رحلة مع طباخته ماري الي روسكوف لكتابته لكن الكتاب لم يظهر الا بعد موته. وكان يبرر شغفه بالطعام بقوله: "الانسان يتلقى من معدته حين يولد، الأمر بأن يأكل ثلاث مرات على الأقل في اليوم، وهذا لكي يستعيد قواه التي بددها العمل وأيضاً الكسل".

***

عند وصول ألكسندر دوماس إلى باريس، أول مرة لم يكن يعرف الكثير عن الكتب. فكيف استطاع ان يحمل القلم ويكتب "الفرسان الثلاثة" و"الكونت دو مونت كريستو" وغيرهما من أعماله العظيمة؟

يقول دوماس: "إن أول إلهام لي كان دائماً المستحيل". وكانت الكتابة لألكسندر دوما عشيقة نهمة لا ترتوي. نجد في كتابات دوماس هذه الحيوية الاستثنائية التي ميزت شخصيته وهذا الحب الجارف

للحياة. يقول عنه ميشليه: دوماس هو "قوة من قوى الطبيعة". ثمة حركة لا تقاوم وتحيي كل انتاجه المسرحي والروائي. الحبكة منسوجة باتقان. القارئ في إعصار من المغامرات وتجعله مبهور الانفاس حتى النهاية، أبطاله مفتولو العضلات مثله ويملكون ارادة قوية لا تقهر وأسلوبه الذي جرى انتقاده غالباً لا ينقصه السحر ولا الحيوية؛ حبه لشكسبير دفعه الى المسرح وأول مسرحية لاقت نجاحاً كبيراً له هي "هنري الثالث وبلاطه" وبعدها "أنطوني".

لكن هذا لا يجعل منه فقط مجرّد روائي يكتب لتسلية المراهقين بالمغامرات التي يحيكها بل كاتبا منتمياً الى الأدب الكبير"، فقد كان دوما يكتب بالبساطة التي يكتب بها كبار الأدباء بخاصة ستندال والذين يعطون انطباعاً بأن اللغة الفرنسية وُجدت ليكتبوا بها. خبرته ككاتب مسرحيات جعلته يتقن فن الحوار، وهو أيضاً رسام مدهش للأجواء والديكورات ، وكان دوماس يرفض الخيار بين أن يكون بورجوازياً سطحياً أو أن يعيش في البرج العاجي للكاتب المختار، لذا فهو يقترح النموذج التقليدي لفارس المغامرات، وكان دوما غزير الانتاج فبلغ عدد كتبه ٣١٢ كتابا، بعضها نشر بعد وفاته، فقد نشرت دار فيبوس الفرنسية وبمناسبة مرور مائتي عام على مولده عددا من رواياته التي لم يسبق نشرها، وكانت مخطوطاتها قد عثر عليها ضمن أوراق تخص الكاتب، ومن هذه الروايات "البيض والزرق"، التي تبين لنا وجهة نظره ، بحيث نجد فيها مجاميع البروتستانت ومواليهم والكاثوليك القدامى في فرنسا يتوجهون الى باريس استعدادا للقتال ، ومن جهة آخرى يصور لنا

دوماس فتاتين جميلتين ملفوفتين في رداء ثلاثي الألوان هي ألوان العلم الفرنسي ، ساهرتين تتجادلان وعلى كتفيهما وشم على شكل زهر الزنبق ، يطبع قديما على أكتاف المجرمين والمطلوبين للعدالة. تتناول موضوع نابليون والصراع بين الجمهوريين والارستقراطيين.

***

وبالرغم من كل الشهرة والمكانة التي حظي بها ألكسندر دوماس الأب وترجمة أعماله إلى أكثر من مائة لغة ، إلا أنه يلقى إهمالا غير مبرر من المترجمين العرب، فترجمات أعماله قليلة بل نادرة، كما أنها ترجمات سيئة وغالبا مختصرة للغاية، لا تعطي ولو شيئاً يسيراً من عبقرية دوماس.

وبالرغم من قول النقاد بأن ألكساندر دوماس ليس من ذلك النوع الذي يهب قارئه عمقاً فكرياً في أعماله الروائية، إلا أن أعماله تتميز بأشياء هامة للغاية منها المتعة الفائقة التي تمنحها للقارىء، فالقراءة هي بحث عن الممتع والجميل، و دوماس الذي لا يعطي أي عمق فكري في نصوصه، لكنه يتعهد للقارئ من البدايات الأولى في أعماله بأنه سيقدم له قدرا كبيرا من المتعة والإثارة والتشويق.

أيضا فميدان ألكساندر دوماس الأب في الرواية هو التاريخ. كيف تصبح فترات من التاريخ الفرنسي والأوروبي ميدانا لبناء روائي كبير يجمع ما بين الحقيقي والخيالي، وقد جعل من الصفحات الصامتة من التاريخ – تلك اللحظات غير المسجلة والدائرة في القصور والأقبية والميادين

الحربية – مساحة حرة له، يعيد تشكيلها على هواه ، بل تخطى ذلك ليجعل من الشخصيات التاريخية – لا الشخصيات المتخيلة فحسب – ميدانا له، يعيد بناءهم بما يحمل طابع التشويق للقارئ، وينتهون إلى تلك اللحظات المسجلة في التاريخ.

وهنا نتذكر ما كتبه فيكتور هوجو في رسالة إلى الكسندر دوماس الابن، كتبها مواسيا بعد وفاة الأب، يقول فيها: "ليست هناك شهرة في هذا العصر تضاهي شهرة الكسندر دوماس الأب، ونجاحاته انتصارات لها وقع النفير. ان اسم الكسندر دوماس الأب يتجاوز حدود فرنس ، إنه أوروبي، لا بل يتجاوز حدود أوروبا، إنه عالمي".

د. أنور عبد العزيز

الملك لويس الثالث عشر

عندما حل المساء توجه المسيو دي تريفيل إلى قصر اللوفر لزيارة الملك ، وكان يتوقع أن يجده معتل المزاج، ولكن على العكس وجده مرحا، وكان الملك يلعب الورق مع بعض النبلاء من رجال الحاشية.

وكان لويس الثالث عشر تعساً بطبعه ولذلك كان يفرح جداً إذا زادت أرباحه في اللعب، وحينما رأى تريفيل ترك مقعده بعد أن جمع ماله ودخل به إلى حجرة في داخل القصر.

ثم قال مدعيا الغضب: تعال هنا يا تريفيل، ودعني أوبخك، هل تعلم أن الكردينال قد قدم بعض الشكاوى ضد فرسانك؟ وقد ضايقته إلى حد أن حلت بينه وبين الحضور هذا المساء ليشاطرني لعب الشطرنج وفي اعتقادي أن فرسانك من النوع الخطر الذين غاية ما يفعلوه هو البحث عن شخص ليقتلوه أو يجرحوه.

- "بالعكس يا صاحب الجلالة إن سيوفهم لا تخرج من جرابها إلا لخدمتكم ولكن ماذا يفعلون إذا كان حراس فخامته يشاكسونهم دائماً، فهم مضطرون للدفاع عن أنفسهم حفظاً لكرامتهم".

ـ "هل تعني يا تريفيل أن حرس الكردينال هم الذين يبتدئون العراك؟ هذا

ما لم يخبرني به الكردينال، وعلى كل حال يجب أن أسمع دفاع الطرفين. لأني لم أعرف بلويس العادل عبثاً.

- "المسألة ظاهرة يا مولاي": فقد كان ثلاثة من حراس جلالتكم الشجعان آتوس وبروتوس وأراميس يتنزهون ومعهم فارس صغير من جاسكونيا قدمته إليهم هذا الصباح، وكان أتوس لازال منهكا من الجرح الذي أصابه غدراً من أحد حراس الكاردينال الجبناء في الأسبوع الماضي، وبينما كانوا جالسين في غابة خلف بناء الحرس ولم يمض على جلوسهم بضع دقائق حتى ظهر فجأة خمسة حراس من مبارزي حرس الكاردينال ومن أحسنهم، وطبعاً نال هؤلاء الخمسة جزاءهم على ما أقدموا عليه.

- "ها أنا أشك في ذلك".

واستطرد تريفيل يقول:

- "وكما تعلم يا مولاي فإن الفرسان في خدمة جلالتكم وجلالتك فقط، ولكن حرس الكاردينال يخدمون فخامته فقط، وطبيعي جداً أن يتولد الحقد بين الحرسين".

"فقال الملك بحزن: صدقت يا تريفيل إنه من المحزن حقاً أن نرى حرسين في بلد واحد، وكأنه يوجد ملكان بدل ملك واحد استمر في قصتك".

- هؤلاء الفرسان الثلاثة الذين كان أحدهم مريضاً والفارس الصغير الذي قدمته لهم في الصباح انتصروا انتصار الأبطال في المبارزة ضد الخمسة الحراس، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا أحدهم وجرحوا ثلاثة منهم.

صاح الملك وهو يفرك يديه مسروراً: "وما الذي يدعوك أن تسمي هذا نصراً. وما اسم الفارس الصغير وهل حافظ على التقاليد المتبعة"؟

- "دارتانيان يا مولاي: هو ابن صديق قديم لي وقد بارز ببطولة جعلتني آخذ على نفسي العهد بالتوصية عليه لدى جلالتكم".

- "زد في حديثك، أنت تعلم كم يسرني أن أسمع قصص المبارزة".

- دارتنيان: يا مولاي فارس صغير السن جداً، وقد طلب منه الفرسان الابتعاد في الحال قبل المبارزة لأنه كان يرتدي ملابس مدنية.

- ولم ذلك يا تريفيل؟ هذا يثبت اعتداء حراس الكاردينال أولا.

- فاستطرد تريفيل بدون شك يا مولاي دارتنيان فارس بقلبه بحرس جلالته ولذا سيبقى مع الفرسان الثلاثة.

فقال الملك: يا له من فارس شجاع، ثم استطرد تريفيل "واستل سيفه يا مولاي ووقف يدافع وهو الذي جرح "جوساك" جرحاً خطيراً، وهذا ما أغضب الكردينال".

"فشك الملك في ذلك واستفسر تريفيل: أهو الذي جرح "جوساك"؟ هذا محال يا تريفيل إن فارسك لازال في المهد بجانب جوساك الرجل المدرب والذي أعتقد جازماً أنه أحسن مبارز في المملكة، وليس بغريب أن يغضب الكردينال؟.

– هذا حدث كما رويت لجلالتكم وقد وجد "جوساك" فجأة من هو أحسن منه.

"لابد أن أرى هذا الفارس الصغير يا تريفيل، ربما كان في الإمكان عمل شيء له، أحضره غدا لمقابلتي عند الظهر.

– فقال تريفيل ملمحاً للملك عن موقف الفرسان الثلاثة أتوس وبروتوس وأراميس وما أظهروه من شجاعة ومهارة: لا يمكن غض النظر عنها "أأحضره وحده يا مولاي؟".

– "لا دعني أرى الأربعة معاً، أريد أن أشكرهم جميعاً دفعة واحدة، إنه من النادر أن يعثر الإنسان على مثل هؤلاء الأبطال يا تريفيل، قال الملك ذلك بحدة، ويجب مكافأة المخلصين للعرش.

وتردد الملك قليلا ثم أضاف قائلا: "ليس من الضروري أن يعرف الكاردينال شيئاً عن هذه المقابلة".

– "سمعاً وطاعة يا مولاي" قالها تريفيل بغضب".

"أضاف الملك بعد تفكير عميق. لابد أن تفهم يا تريفيل أن قوانين البلاد تمنع المبارزة ولابد أن يكونوا غير مسلحين.

- ولكن هذه المبارزة يا مولاي لم تتم قصداً باتفاق على المبارزة.. كانت مبارزة عادية، مبارزة في الطريق، والدليل على ذلك وجود خمسة فرسان من حرس الكردينال ضد فرساني الثلاثة والشاب الصغير دارتنيان.

- "هذا صحيح ولكني أظن أنه من المستحسن أن يحضروا إلى من الباب الخلفي".

فابتسم تريفيل وانحنى احتراماً وخرج.

دارتنيان يتلقى الدرس

وفي نفس المساء كان الفرسان الأربعة على علم بموعد تشرفهم بالمقابلة الملكية في ظهر اليوم الذي يليه، وقد تعود آتوس وبروتوس وآراميس مقابلة الملك قبل ذلك ، ولذلك لم يظهر عليهم أي ارتباك أما دارتنيان فكان يرى أنه في هذه المقابلة سوف يبني مستقبله ولذلك مضى ليلته وهو يحلم أحلاماً ذهبية.

بدر دارتنيان في القيام من نومه في هذا الصباح وفي الساعة الثامنة كان ذاهباً إلى شقة آتوس، فوجد الفارس على أهبة الخروج لمقابلة بروتوس وأراميس ليلعبوا التنس في الملعب الذي يقع خلف اصطبلات لوكسمبورج.

آتوس كان من اللاعبين الممتازين في هذه اللعبة وكان تكوين جسمه مهيأ لذلك وكان دارتنيان على علم بسيط بهذه اللعبة، وقد اختاره آتوس ليكون زميله في اللعب ضد بروتوس وأراميس ولم يكد آتوس يبتدئ في اللعب حتى انفتح جرحه القديم وسال منه الدم ثانية، وظل دارتنيان مكانه يتبادل الكرة وحيداً ضد بروتوس وأراميس ولكن دون تقييد للعب، وقد ضرب بروتوس الكرة بقوة شديدة فمرت على قيد شعرة من رأس دارتنيان كانطلاق المدفع. ولو أصابته في رأسه لعجز عن تشرفه

بالمقابلة الملكية. لأن هذا الموعد كان له كل شيء في حياته، ولذلك أخبر زميليه عدم استطاعته تكملة اللعب معهم حتى يتمرن المران الكافي الذي يجعله يتكافأ معهم. وترك الملعب وذهب إلى المقصورة الخاصة بالمتفرجين ليشاهد لعب الآخرين.

وكان بين المتفرجين كثير من حرس الكردينال، وكان أحدهم م. برناجو قد تأثر من هزيمة رفقائه على يد الفرسان في اليوم الذي قبله، وأقسم أن ينتقم في أول فرصة تتاح له لرد الهزيمة النكراء التي حلت بهم.

فقال بصوت عال لرفقائه: إنه ظاهر تماماً أن الصغير ليس فارساً، وليس من المستغرب أن يخاف من كرة تنس.

فأدار دارتنيان نفسه وحدق بعينيه في هذا الحارس الذي تكلم دون وجه حق.

وأكمل الحارس كلامه موجهاً لدارتنيان "لله درك حدق في ما شئت فقد قلت ما يتراءى لي أن أقول".

فقال دارتنيان بصوت منخفض: "هذا لا يحتاج لأي شرح أرجوك أن تتبعني".

– أظن أنك تعلم من أنا؟

– ليس عندي أي فكرة عمن تكون وعلى كل حال فهذا لا يزعجني.

– أنت مخطئ في هذا. لأنك لو علمت اسمي لما تعجلت في الرد.

– أوه! وما هو اسمك؟

– بيرناجو.

– حسناً. إذاً يا برناجو– قالها دارتنيان بهدوء– سأنتظرك خارج الباب، تعجب الحارس كثيراً لأن ذكر اسمه لم يؤثر على الشاب، أي تأثير إذ أن اسم برناجو كان معروفاً لدى كل إنسان ما عدا دارتنيان– إنه أشجع مبارز في حرس الكردينال.

ولم يكن عند دارتنيان وقت ليضيعه نظراً لقرب ميعاد الملك في الظهر، فنظر هنا وهناك ولما وجد الشارع خالياً التفت إلى الحارس.

– "إنه من حظك يا بيرناجو ألا تبارز فارساً في حرس مولاي، فجرد بيرناجو سيفه وهجم على خصمه مؤملا أن الذي أمامه شخص صغير السن غير مدرب ويهابه، لكن دارتنيان كان قد تلقى درسه في اليوم السابق، والتحم السيفان، ولثبات دارتنيان. في وقفته رجع بيرناجو إلى الوراء فهجم عليه دارتنيان بوحشية وأصابه في كتفه وكان قد تعلم هذه الحركة من آتوس.

فرجع إلى الوراء حتى يتمكن الرجل الجريح من الدفاع عن نفسه فصاح الحارس أن لا شيء وهجم عليه ومن شدة غضبه اندفع إلى الأمام حيث كان سيف دارتنيان مصوباً إليه بطرفه فأصيب في صدره إصابة بالغة، ولكنه لم يسقط بل انحرف إلى الشارع ميمماً شطر م دي تريمول أحد أصدقائه والذي كانت عيادته في الجانب الآخر من الشارع. فتردد دارتنيان وتعجب لهذا الموقف فلم يسقط بيرناجو كما أنه لم يسلم بالهزيمة، وكان يريد أن ينهي المبارزة بطعنة أخرى، ولكنه وجد حارسين آخرين يهجمان عليه. ذلك أن صوت التحام السيوف لفت نظر بعض المتفرجين على التنس. أما هذان الحارسان فكانا من أنصار برناجو وقد أسرعا مستلين سيفيهما يتساءلان ما الذي يستوجب المبارزة.

وعندما لاحظ آنوس وبروتوس وأراميس أن صديقهم اختفى لغير سبب أسرعوا في الحال خلفه، وقبل أن يتمكن الحارسان من التغلب على دارتنيان وجدا نفسيهما مسوقين أمام أصدقائه الثلاثة.

وعندئذ سقط برناجو. ولما وجد رجال الحرس أنهم اثنان فقد صرخا "النجدة" فاندفع بعض أتباع م دي تريمول وزائريه لمساعدتهما عند سماعهم صراخهما هذا، فصاح الرفقاء الأربعة "تجمعوا أيها الفرسان" "تجمعوا أيها الفرسان" وفي الحال ازداد عدد أنصار الفريقين، وأصبح القتال عاماً وبسرعة أصبحت القوة الغالبة في جانب الفرسان فتقهقر حرس الكاردينال ومن بينهم جريحان إلى منزل م دي تريمول

حاملين بيرناجو معهم وأغلقوا الأبواب الحديدية في الوقت المناسب ليمنعوا الفرسان وأصدقاءهم من الدخول.

كان الحماس حينئذ قد بلغ مداه في صفوف الفرسان فصاروا يتكلمون بصوت عال عن تحطيم الأبواب وإشعال النار في المبنى لمعاقبة أتباع م دي تريمول على تجرئهم على شهر السيوف ضد فرسان الملك، ولكن دقت الساعة الحادية عشرة مذكرة دارتنيان ورفقاءه الأربعة بمقابلتهم. فأسرعوا إلى ثكنات الحرس بعد أن نجحوا بصعوبة في تهدئة أصدقائهم.

المقابلة

كان م دي تريفيل منتظراً الفرسان الأربعة عند الباب الرئيسي بعد أن علم بالاضطراب ، فقال أسرعوا دون أن ينتظر أي تفسير، لابد أن نسرع إلى اللوفو في الحال ونحاول أن نرى الملك قبل أن يتسع الوقت لدى الكاردينال ليقدم شكاوى ضخمة وسأفسر الأمر على أنه استمرار لما حدث بالأمس.

فتوجه م دي تريفيل إلى اللوفر، مصطحباً معه الشبان الأربعة، ولشد ما كانت دهشته عندما علم أن الملك ذهب لصيد الوعول في سانت جيرمان وكان هذا مزعجاً للغاية إذ أن من المؤكد أن الكاردينال سوف يذهب إلى سانت جيرمان في أثناء اليوم ليرى الملك في حين أن م دي تريفيل كانت لديه واجباته يؤديها في باريس بصفته قائداً للحرس.

وفي المساء حوالي الساعة السادسة قال م دي تريفيل إن الوقت حان للذهاب إلى اللوفر لأن الملك قد عاد من الصيد.

ودخل م دي تريفيل على الملك بجسارة ووجده كما توقع متوعك المزاج للغاية، وكانت رياضة اليوم في غاية السوء، لأن الملك كان مظهراً ضجره من كل شيء وكل شخص.

وزمجر الملك قائلا: ما هذا الذي يخبرني به الكاردينال عن

فرسانك القتلة أليس لك سلطة عليهم؟ أعينتك قائداً لفرساني لأجل أن يقتلوا الرجال ويشيعوا الفوضى في كل الحي حتى أنهم حاولوا إشعال النار في باريس؟.

ولكن يجب ألا أتهمك ظلماً، أني أظن أن فرسانك المتهورين آتتوس وبروتوس وأراميس مع هذا الصغير الجاسكوني المتوثب قد اعتقلتهم وأنك حضرت لتخبرني أن العدالة أخذت مجراها.

فقال م دي تريفيل بهدوء: بالعكس يا صاحب الجلالة فإني حضرتك لأطلب العدالة منك.

فقال الملك مندهشاً: ما هذا الذي تقول؟ أتعني أن تقول أن الكاردينال خدعني مرة أخرى؟ أتنكر أن هذا المسكين بيرناجو قد هوجم وعومل بقسوة من رجالك هؤلاء الغير منظمين، وربما هو الآن في عداد الأموات! أتستطيع أن تنكر هذا؟.

فأجاب م دي تريفيل بحزم: "إن من رأيي يا صاحب الجلالة أن صاحب الفخامة لا يخدع إلا نفسه لأنه على استعداد دائماً لاتهام فرسان جلالتكم نظراً لحسده لهم هو وحرسه) علماً بأنه من المؤكد قد أسئ تبليغه النبأ.

ثم شرح م دي تريفيل للملك ما وقع بالفعل.

واختتم قائلا: والآن ففي منتهى الوضوح أن رجال الكاردينال كما

هي عادتهم دائماً هم مثيروا المشاكل الحقيقيين.

فقال الملك محاولا إخفاء رضائه: سوف ترى أني لم أسم لويس العادل عبثاً، ولكن أين هؤلاء الفرسان الثلاثة وهذا الجاسكوني؟ إني أخبرتك أمس رغبتي في رؤياهم.

- "إنهم ينتظرون يا صاحب الجلالة وبإذنكم استدعيهم".

- فقال الملك عندما ظهر الشبان الأربعة في الباب أدخلوا يا فرساني "أدخلوا واجعلوني أعاتبكم" فتقدم الفرسان الثلاثة وانحنوا وتبعهم دارتنيان وانحنى كما فعلوا. قال الملك: "لله دركم قتلتم وأعجزتم سبعة من حرس صاحب الفخامة كما قال في يومين وأنتم أربعة! حتما إذا استمررتم على هذا فسيضطر أن يجدد حرسه على بضعة أسابيع، ويظهر أنه لابد أن أزيد من قسوة القوانين ضد المبارزة. آه يا تريفيل أهذا صغيرك الجاسكوني الذي هناك؟ "تعالى هنا يا سيدي". ففهم دارتنيان أن الملك يوجه إليه الكلام فتقدم وانحنى.

أنك قلت لي يا تريفول إنه شاب ولكن ما هو إلا صبي. أكان هو حقيقة الذي طعن جوساك بالسيف؟

نعم يا صاحب الجلالة، وكذلك هاتين الطعنتين الماهرتين اللتين أعجز بهما بيرناجو.

فقال الملك: "لابد أن يكون الشيطان نفسه متخفياً. ولكن في مثل

هذه الأمور لابد أن ملابس مزقت وسيوفاً قد تحطمت.

والتفت الملك إلى تابعه الخاص وقال لاشينساي: اذهب وابحث في جيوبي كلها عن بعض النقود. احضر لي أربعين بيستولا إذا استطعت العثور عليها". وأكمل حديثه ناظراً إلى دارتنيان: "والآن أيها الشاب حدثني بقصتك عما حدث".

فحكى دارتنيان المغامرات بأسلوب بسيط، ولكنه ممتلئ حيوية أعجب بها الملك.

فقال الملك: "يبدو لي أن صاحب الفخامة قد حذف بعض التفاصيل. يا للكاردينال المسكين سبعة رجال في يومين وخير رجاله كذلك! ولكن هذا فيه الكفاية أيها السادة أتفهمون؟ أنكم أخذتم بثأركم وزيادة فيجب أن ترضوا".

فقال م دي تريفيل: "إذا كان مولاي راضياً فنحن كذلك راضون".

- فقال الملك: نعم إني راضي". ثم أعطى المال الذي أحضره له لاشينساي إلى دارتنيان. قائلا: "هذا دليل عن رضائي".

فأخذ دارتنيان المال بغير تردد وشكر جلالته.

في هذه الأزمنة كانت معايير الكرامة تختلف عما هو سار في وقتنا الحاضر. فحينئذ كان الرجل يأخذ هدايا المال مباشرة من يد الملك بدون جرح للكرامة أو شعور بالضعة.

ونظر الملك إلى الساعة وقال: "إنها الثامنة والنصف وأنا انتظر شخصا في التاسعة فيمكنكم الانصراف أيها السادة وإني أشكركم لشجاعتكم.

وأضاف قائلا في صوت منخفض بعد خروج الشبان الأربعة "تريفيل حيث لا يمكننا تعيين هذا الشاب الجاسكوني مباشرة في الحرس نضعه في فرقة حرس تحت قيادة صهرك م. دي إيزارت. آه يا تريفيل أني سوف أتمتع بما يبديه الكاردينال فسيكون غاضباً ولكن ذلك لا يهمني طالما أعمل ما هو صحيح".

فأشار الملك بيده إلى م دي تريفيل الذي انحنى وأسرع خارجاً ليلحق بفرسانه فوجدهم يشاطرون دارتنيان في الأربعين بيستولات هدية الملك.

وبعد بضعة أيام استدعى م دي تريفيل دارتنيان إليه في مقر قيادته وأخبره أنه وجد له مكاناً في حرس الملك تحت قيادة دي إيزارت.

وقد وضع دارتنيان بكل فخر زي الحرس ولو أنه كان يعطي عن طيب خاطر عشرة أعوام من عمره في مقابل زي الفرسان.

مؤامرة في البلاط

ما لم يكن لدارتنيان طبائع محددة بعد فقد كان من السهل عليه التطبع بعادات أصدقائه الثلاثة. وأما من جانبهم– الفرسان الثلاثة – فقد تعلقوا بصداقة زميلهم ولم يمض وقت طويل حتى أطلق عليهم "الذين لا يفترقون" ، حتى حين يكون دارتنيان يؤدي عمله في اللوفر فإن أصدقاءه الآخرين يرافقونه، وقد أعجب م دي إيزارات سريعاً بالشاب الجاسكوني، واعتقد أن فرقته قد زادت أربعة رجال بدلا من واحد عندما انضم دارتنيان إلى حرس الملك، وكان دارتنيان هو الآخر يرافق أصدقاءه متى كانوا قائمين بعملهم. وأصبح معروفاً في مقر القيادة تمام المعرفة مثله كمثل الفرسان الثلاثة أنفسهم.

وقد جعل م دي تريفيل دارتنيان يقبل المساعدة لشراء زيه وخيول له ولتابعه بلانشت. وقد أعطاه م دي ايزارات سلفة، ومع ذلك لم يمض وقت طويل حتى صرف دارتنيان نصيبه من الأربعين بستولات. وحتى ذلك الحين لم يكن قد استلم دفعات منتظمة من فرقته، فكان مضطراً أن يعتمد على أصدقائه لمساعدته. وكان في بعض الأوقات يشعر ببعض الضيق من ترحيبهم لمشاركته في جميع ما يملكون ونسى كيف شاطرهم بدون تردد هبة الملك المالية.

قرع أحدهم الباب بلطف أثناء تفكيره في إمكان طلب سلفة أخرى من م دي إيزارات، ثم فتح بلانشت الباب لشخص حسن الهيئة وقد

انحنى لدارتنيان وانتظر بدون كلام حتى انصرف الخادم من الحجرة. وابتدأ قائلا: "م دارتنيان سمعتهم يتحدثون عنك كسيد شجاع ولهذا أتيت إليك في مصيبتي".

فأجلب دارتنيان ملاحظاً اضطراب الرجل "أرجوك أن تكمل يا سيدي".

- "لقد خطفت زوجتي كبيرة وصيفات الملكة صباح أمس".

فسأله دارتنيان بحدة مبدياً الاهتمام بإمكان مغامرة جديدة، من خطفها؟

- أنا لست متأكداً لأن زوجتي حسناء ولكني معتقد أن هناك أموراً سياسية أكثر من الحب في هذه المسألة.

- فأجاب دارتنيان أموراً سياسية أكثر من الحب في ماذا تشك؟

- فأجاب دارتنيان مبدياً بعض الضيق. "في هذه الحالة لا تقل يا سيدي":

- لا يا سيدي لا إنك شاب مخلص وسوف أثق فيك، وأنا اعتقد أنها اختفت من أجل مؤامرات تخص سيدة ذات أهمية أكبر بكثير.

- فأجاب دارتنيان بشكل الملم بمؤامرات البلاط "آه مدام دي بواتراسي".

– "أعلى يا سيدي أعلى".

– "مدام دابجتيون".

– "أعلى".

– "الدوقة دي شيفرس".

– "لا يزال أعلى أعلى بكثير".

– فأجاب دارتنيان في تردد "من..."؟.

– نعم يا سيدي همس الزائر بصوت منخفض "الملكة".

– "مع من"؟.

– مع من؟ لماذا، مع من غير دوق...؟.

– "وق باكنجهام؟".

– "نعم يا سيدي".

كيف علمت ذلك؟. أخبرني بكل شيء وإلا.. أنت فاهم؟.

– م لابورت أخبر زوجتي بالأمر وهي أخبرتني. وهو والدها المروض وتابع الملكة الخاص وحامل العباءة، وقد وضع زوجتي في مكان قريب من الملكة التي في حاجة محزنة إلى شخص تثق فيه. وكما تعلم فإن الملكة مهملة من الملك ومحاطة بجواسيس الكاردينال

ويخونها كل شخص.

- "نعم نعم استمر، قال ذلك دارتنيان وهو لا يعلم شيئاً ولكنه يرغب أن يخفي جهله".

- "تعتقد الملكة أن شخصاً كتب لدوق بكنجهام باسمها".

- "خطاب مزيف"؟.

- "نعم لجعله يحضر إلى باريس حيث يقع في الشرك هو والملكة".

- "حسناً، ولكن ما علاقة كل هذا بزوجتك"؟.

- "إن ولاءها للملكة معروف تمام المعرفة، فبدون شك أراد رجال الكاردينال أن يبعدوها عن سيدتها، وربما أرادوا أن يخفوها لتخون صاحبة الجلالة، أو حتى يرغموها أن تصير جاسوسة عليها".

فأجاب دارتنيان: "ربما. لكن من خطفها"؟.

- "أعتقد أنه أحد جواسيس الكاردينال، فقد لاحظت زوجتي أن رجلا يراقبها أينما ذهبت لشراء الحاجات وأشارت":

- "أيمكنك أن تتعرف عليه"؟

- "أوه بسهولة. إنه طويل نبيل المظهر، عابس الملامح، شعره أسود، عيونه عادة، وعلى خده أثر جرح قديم".

- فصاح دارتنيان "إن هذا الرجل الذي فر مني في ميونخ، هذا يسهل الأمور، فإذا كان رجلك هو رجلي فبضربة واحدة أصيب عصفورين بحجر.

- وكيف عرفت أن زوجتك خطفت"؟

- "أخبرني لابورت ثم استلمت هذا الصباح.." تردد الزائر ثم توقف، وكان ظاهراً أنه خائف أن يستمر.

- "فقال دارتنيان بحدة: استمر إن الوقت متأخر للانسحاب".

- فصاح الرجل مبدياً العزم فجأة: "الانسحاب بكلمة من بوناسيو.. فقاطعه دارتنيان

- "أهذا اسمك، يظهر إني معتاد عليه؟".

- "لابد يا سيدي لأني صاحب هذا المنزل".

قال دارتنيان وهو يهم بالقيام وينحني: "آه إذن فأنت صاحب مسكني".

- نعم يا سيدي، ولو أن الآن مضت ثلاثة أشهر منذ استأجرت هذه الشقة، فيبدو أنك نسيت أن تدفع أي إيجار، ولأني أراك مشغولاً دائماً بأعمالك المهمة في اللوفر فلم استطع إزعاجك بتذكيرك بمثل هذه الأمور البسيطة.

فقال دارتنيان: "إني شاكر لك يا عزيزي بوناسيو تفكيرك هذا، وإذا استطعت أن أقوم بأي خدمة من أجلك".

فدفع بوناسيو فجأة وبأصابع مرتجفة في يد دارتنيان بالرسالة التالية:

"لا تبحث عن زوجتك سوف يطلق سراحها عندما لا تستدعي الحالة الاحتفاظ بها، إذا اتخذت أية خطوة للعثور عليها سوف تفقد".

وقال بوناسيو: إني لا استطيع القتال ولكنك صغير السن وشجاع. ودائماً أبداً محاط بفرسان نبلاء الهيئة، وحيث أن هؤلاء الفرسان يقودهم م دي تريفيل فهم من الطبيعي أعداء للكاردينال، لهذا فكرت أنك وأصدقائك يمكنكم أن تقدموا خدمة لمليكتنا المسكينة، وفي الوقت نفسه تكونوا مسرورين للقيام بمتاعب لصاحب الفخامة.

ربما قال دارتنيان:

– وهذا هو الإيجار الذي لم أطلبه...

– نعم نعم وإنك قمت بشرح ذلك بكفاية.

– وحينئذ طالما أنت منحتني شرف وجودك بالشقة فإني لن...

– حسناً.

– وزيادة إذا لم يكن معك في الوقت الحاضر ما يكفي من المال

فإني اقترح أن أقدم لك خمسين بيستولات.

– حسناً جداً، لابد أنك رجل ثري يا عزيزي بوناسيو.

– إن حالتي المالية حسنة وعندي عمل، ثم صرخ فجأة: انظر يا سيدي، انظر في الشارع في مدخل الباب من الجهة المقابلة رجل يلبس عباءة.

– صاح دارتنيان وبوناسيو معاً كل منهم متعرف على عدوه أنه هو، لن يهرب مني هذه المرة. ثم صاح دارتنيان شاهراً سيفه ومندفعاً خارجاً من الحجرة لن يهرب، وعند الباب قابل آتوس وبورتوس حاضرين لزيارته، فابتعدوا عن بعضهم، ومر دارتنيان من بينهم كالشهب.

فصاح بورتوس آي، إلى أين أنت ذاهب؟

فصاح دارتنيان مجيباً وهو يختفي "رجلي من ميونخ". ولعلمهم بعدم حاجته لمساعدتهم استمروا في طريقهم إلى شقته.

الكل في واحد

بينما كان دارتنيان يبحث عن الرجل ذو أثر الجرح القديم، وكان أراميس قد وصل، فلما عاد دارتنيان إلى مسكنه وجد زملاءه الثلاثة في انتظاره.

فسأله بورتوس وأراميس معاً حسناً، ولما كان أتورس لا ينطق بكلمة غير لازمة فاكتفى بسؤال دارتنيان بنظره، وألقى دارتنيان سيفه على كرسي يجفف عرق جبهته.

هذا الرجل لابد أن يكون الشيطان متقمصاً زي شخص، فقد اختفى في الهواء، وأن هروبه لخسارة إذ حرمنا من فرصة ذهبية لملء جيوبنا.

فسأل بورتوس والضجر بادياً في صوته: "وكيف ذلك"؟.

فطلب دارتنيان تابعه: "بلانشت" انزل لصاحب المنزل م بوناسيو، واطلب منه أن يرسل لي نصف دستة من زجاجات الخمر.

أوه هو، على ذلك لديك حساب مع صاحب المنزل! قالها بورتوس لاعقاً شفتيه، فأجاب دارتنيان: – نعم، وإذا لم يكن الخمر جيداً فسأرسل لطلب خمر أحسن.

فقال أراميس بصوت هادئ: لابد أن نستفيد ولا نسيء الاستعمال.

وفي أثناء تناول الخمر حكى دارتنيان لزملائه كل ما حدث بينه وبين صاحب مسكنه، وكانوا كلهم آذان صاغية، حين شرح لهم أن الذي خطف مدام بوناسيو كان هو الرجل الذي تشاجر معه في جوني ميلر.

واستمر قائلا: يجب ألا تقلق على مدام بوناسيو بقدر الملكة التي يبعد أصدقاؤها عن البلاد الواحد تلو الآخر بواسطة ملك غيور وخطط الكاردينال.

فأشار بورتوس: ولكن لماذا تظهر مثل هذه الصداقة نحو إسبانيا وانجلترا؟

فقال أراميس إن اسبانيا هو موطنها الأصلي، فمن الطبيعي أن تحب إسبانيا والإسبانيين، أما فيما يتعلق بانجلترا فإنها كما سمعت تحب انجليزياً أكثر مما تحب انجلترا.

فقال بورتوس: اقسم أنه لابد من العلم أن بكنجهام شخص لطيف، ولم أر أنبل منظراً منه.

وحينئذ سمعوا وقع أقدام على السلالم، وفتح الباب فجأة، ودخل صاحب المسكن الحجرة يجري.

فقال محاولا التنفس: أنقذوني أيها السادة بحق السماء! أنقذوني فقد جاء أربعة رجال ليعتقلوني.

انتظر– فقال دارتنيان مشيراً إلى أصدقائه أن يغمدوا سيوفهم المشهورة. انتظر، لا تلزمنا الشجاعة الآن بل التعقل.

وفي الحال ظهر رجال الكاردينال الأربعة في الباب، ولكنهم ترددوا عندما رأوا الفرسان الثلاثة وأيديهم على مقابض سيوفهم.

"إني آمل أيها السادة أن لا تمنعونا من تنفيذ ما لدينا من أوامر، قالها أحدهم يظهر عليه أنه قائدهم".

فقال دارتنيان: بل على العكس فسوف نساعدك إذا لزم الحال.

فابتدأ صاحب المسكن المرتجف يقول: ولكنك وعدتني..؟.

سكوت: همس دارتنيان إننا نستطيع مساعدتك إذا كنا أحراراً، فإذا هاجمنا هؤلاء الأشخاص فسوف يطلبون النجدة ونعتقل، لا تخف فسوف يطلق سراحك في يوم أو ما يقرب من ذلك.

تعالوا أيها السادة– قال دارتنيان بدون أن يترك لصاحب المسكن فرصة لمتابعة الكلام– وخذوه بعيداً وأحكموا الإغلاق عليه جيداً حتى لا يزعجني بما أنا مدين له من إيجار.

فضحك الرجال بصوت مرتفع لما ظنوه أضحوكة، وابتعدوا ومعهم سجينهم، فقال دارتنيان لزملائه: اقترح أن نفترق الآن ونبحث مستقلين عن زوجة صاحب المسكن، فإن معها مفتاح لغز المسألة.

ثم استل سيفه وشهره أمامه قائلا: "الكل للفرد والفرد للجماعة" هذا هو شعارنا أليس كذلك؟

فاستل الثلاثة فرسان سيوفهم في الحال، ووقفوا مواجهين بعضهم البعض الآخر وسيوفهم متقاطعة في الوسط وكرروا معاً الكلمات التي دمغت صداقتهم "الكل للفرد والفرد للكل".

– لنأخذ حذرنا من الآن فصاعدا، قال دارتنيان حين هم أصدقاؤه بالذهاب: "نحن الآن أربعة ضد الكاردينال".

مصيدة فئران القرن السابع عشر

كان كل من يظن أنه ارتكب جريمة يعتقل بطريقة سرية، ثم يختبئ بعض رجال في منزله ويفتحون الباب لكل طارق ويعتقلون كل زواره.

وعلى ذلك فكان يقع في قبضة البوليس عادة عدد من معاوني المتهم، وكانوا يسمون ذلك مصيدة فيران.

وعلى ذلك أصبح منزل م. بوناسيو مصيدة فيران، وكان كل زائر يستجوب بواسطة بوليس الكاردينال السري، وكان زوار دارتنيان لا يقعون في هذا المأزق، لأن منزله له ممر وسلم منفصلان، وعلى أي حال لم يكن يزوره إلا الفرسان.

ولما كان دارتنيان على علم بمصائد الفيران هذه، فقد راقب جيداً كل ما حدث، وقد رأى من نافذة كل الزوار يأتون ويعتقلون، وكان من السهل عليه أن يسمع كل ما يقال في الدور الأسفل خلال السقف لما أزاح لوحا من أرض حجرته.

وحوالي الساعة التاسعة من مساء اليوم التالي للقبض على صاحب المسكن، سمع دارتنيان طرقاً على باب الدور الأسفل، ثم فتح الباب وأغلق بسرعة، فكان ذلك دليلاً على أن هناك فأراً آخر وقع في مصيدة الفيران.

وسمع من خلال مكان استماعه صوت امرأة وأصوات مقاومة.

فصرخ دارتنيان لنفسه: يا للسماء! إنها امرأة ويحاولون تفتيشها مستعملين القوة يا لهم من وقحاء.

– أيها السادة: إني صاحبة هذا المنزل– سمعها دارتنيان تبكي– أنا مدام بوناسيو وأخدم الملكة.

فتمتم دارتنيان ها! مدام بوناسيو! أيمكن أن أكون محظوظاً لأجد الشخص الذي نبحث عنه كلنا؟.

وسريعاً صار الصوت الآتي من أسفل ضعيفاً وغير واضح، لأن امرأة واحدة لا يمكنها مقاومة أربعة رجال قساة طويلا.

فصاح "دارتنيان لبلانشت"– وهو يقفز ويجري نحو النافذة– لابد أنهم يربطون أيديها معاً، أعطني سيفي سريعاً.

إلى أين أنت ذاهب يا سيدي؟ إلى أين أنت ذاهب؟

إني ذاهب بطريق النافذة لاختصر الطريق، أعد اللوح إلى مكانه.

ونزل دارتنيان من نافذة دوره الأول بدون حادث يذكر، وذهب رأساً إلى باب شقة بوناسيو وطرق طرقاً عالياً.

وتمتم قائلا لنفسه: سأذهب واعتقل، ولكن سوف تجد القطط بالداخل أن هذا الفأر له مخالب.

وما أن انفتح الباب حتى اندفع دارتنيان إلى الداخل شاهراً سيفاً في يده، وبعد لحظات سمع جيران بوناسيو أصواتاً عالية تصدر من الداخل واندفاع أقدام وقعقعة الصلب وصت تكسير الأثاث.

وقد شاهد هؤلاء الذين أطلوا من نوافذهم ليروا ما يحدث، شاهدوا الباب العمومي يفتح وبندفع أربعة رجال خارجين منه كأن الشيطان نفسه وراءهم.

ولما فرغ دارتنيان من طرد الرجال إلى الخارج، قفل الباب واستدار لمدام بوناسيو التي كانت تجلس في كرسي ذا مساند شبه مغمى عليها، ورأى على الأرض بجانبها منديلا نسائيا من التيل الأبيض الفاخر، ولما التقطه لاحظ بعض الحروف المطرزة تطريزاً جميلا في أحد أركانه، وكان من الواضح أن مدام بوناسيو المتواضعة الحال لا يمكن أن تملكه.

وفي هذه اللحظة استعادت مدام بوناسيو شعورها؛ ففتحت عينيها الزرقاوين العميقتين، ونظرت حولها في فزع، فلما رأت أنها وحيدة مع منقذها مدت يدها مبتسمة.

وقالت في صوت هادئ عذب: يا سيدي أنك أنقذتني، فاسمح لي أن أشكرك من أعماق قلبي.

فأجاب دارتنيان قائلا لها: وهو يمسك بالمنديل، لا تشكريني يا سيدتي، فما فعلت إلا ما يفعله أي سيد مهذب كان في مكاني.

فجذبت منه المنديل وشهقت ودست في جيبها.

وتساءلت كما لو كانت تحدث نفسها أكثر مما تحدث دارتنيان من هؤلاء الرجال، وماذا يريدون مني! إنهم لا يبدون كلصوص، وأين مسيو بوناسيو؟

- يا سيدتي إن هؤلاء الرجال الأسوأ من اللصوص، فهم عملاء الكاردينال، أما فيما يتعلق بزوجك" فقد أخذ إلى الباستيل بالأمس.

- زوجي!! الباستيل!! قالت بصوت فيه أنين وهي تلوي أصابعها، يا إلهي ماذا فعل، إنه بريء مسكين؟

- أني أعتقد أن جريمته هي أنه كان له الحظ السيئ في أن يكون زوجك.

- وعلى هذا فأنت تعلم..؟

- إنه اختطفك رجل يبلغ الخامسة والأربعين من العمر، شعره أسود وعابس الملامح، وعلى خده أثر جرح قديم.

- وهل زوجي يعلم؟

– فأجاب دارتنيان: نعم، هو أخبرني، ولكن ماذا حدث حتى أطلقوا سراحك سريعاً هكذا؟

– لحسن حظي أنهم تركوني بدون حراسة لبعض الوقت، ولما كنت أعلم منذ الصباح سبب اختطافي، فقد انتهزت الفرصة وهربت من المنزل خلال نافذة خلفية.

– ومن الطبيعي أسرعت إلى هنا وعندي أمل أن أجد زوجي.

– لتضعي نفسك تحت حمايته القوية؟ سألها دارتنيان مبتسماً:

– لا، فإنه رجل مسكين لا يستطيع حمايتي، ولكن يمكنه خدمتنا بطرق أخرى.

– من؟.

– آه! إن هذا ليس سري أنا وعلى ذلك فلن أخبرك به.

– على أي حال يجب علينا ألا نمكث هنا أكثر من ذلك، لأن الرجال الذين طردتهم سوف يرجعون سريعاً مزودين بنجدة. وحينئذ يقضي علينا جميعاً.

فصاحت السيدة الصغيرة بصوت خافت نعم نعم معك حق، ولكن– لكن أين نذهب؟.

- دعينا نغادر هذا المكان أولا ثم ننظر في الأمر.

ولما كان بينهم وبين المنزل مسافة تبلغ عدة شوارع قال دارتنيان. والآن أين تريدين مني أن أذهب بك؟

فأجابت مدام بوناسيو: إني حقيقة لا أعلم، فقد كنت أنوي إرسال زوجي إلى م لابورت، ومن ثم كان يمكن أن يعرف لي ما حدث في اللوفر في الأيام الثلاثة الماضية، وهل هناك خطر من عودتي إلى عملي هناك؟

- أيمكنني حمل رسالتك إلى م لابورت؟

- بدون شك، ولكن هناك صعوبة، وهو أنك غير معروف لحارس الباب المؤدي إلى قسم الخدم، وعليه لن يسمح لك بالدخول.

- ولكن من المؤكد أن هناك كلمة سر...

فنظرت إليه باهتمام وقالت له سريعاً: "وإذا أعطيتك كلمة السر فهل تعدني أن تنساها بمجرد استعمالك لها"؟.

- فقال دارتنيان "أقسم بشرفي وبكلمتي كرجل مهذب".

- فقالت: "إني أصدقك ولكن أين أذهب حتى ترجع"؟.

هل هناك منزل أحد الأشخاص حيث يذهب م لابورت ليراك؟.

– لا، لا استطيع أن ائتمن أي شخص.

فصاح دارتنيان: "لقد وجدت الحل. هناك يسكن أتوس وهو أحد أصدقائي، وكل منا عنده مفتاح مسكن الآخر، وسوف يتناول عشاءه في الخارج هذه الليلة، فيمكنك أن تمكثي هناك حتى يأتي م لابورت".

وبدون انتظار موافقتها أخذ دارتنيان ذراعها وصعد بها السلم إلى شقة أتوس الصغيرة الواقعة في الدور الأول.

وقال "ابقي هنا ولا تفتحي الباب لأي شخص إلا إذا سمعت ثلاث ضربات مثل هذه: "وضرب ثلاث ضربات ضربتين، منهما متقاربة والثالثة بعد فترة قصيرة".

فقالت مدام بوناسيو: "إني أشكرك، والآن سوف أقول لك ما يجب أن تعمله. اذهب إلى باب اللوفر الجانبي الصغير في شارع ليشيل واطلب جرمان.

– "ثم ماذا"؟.

– وعندما يطلب منك، ماذا تريد؟ رد عليه بالكلمات: "تور" و"بروكسل" وحينئذ سوف يضع نفسه تحت أمرك.

– ثم ماذا أقول له؟.

– أطلب منه أن يحضر م. لابورت تابع الملكة الخاصة وحامل العباءة.

– وماذا أقول ل م لابورت؟ سأل دارتنيان متوقعاً أن يفوز ببعض المعلومات من وراء هذا السؤال البسيط المظهر.

فأجابت بابتسامة: "لا شيء، أطلب منه فقط أن يحضر إلي بدون تأخير، ولكن أرجوك ألا تحضر معه".

وانتظر دارتنيان حتى أغلقت مدام بوناسيو الباب وأحكمت قفله، ثم أسرع إلى اللوفر: وفي بعض لحظات وصل إلى باب اللوفر الصغير الجانبي في شارع ليشيل، وبمجرد سماع جرمان لكلمة السر والأمر حتى أرسل لإحضار م لابورت. وأخبر دارتنيان م لابورت باختصار عن كل ما حدث، وشرح له مكان انتظار مدام بوناسيو، وطريقة طرق الباب وكرر م. لابورت العنوان مرات عديدة ليتأكد من صحته.

وكان على وشك النزول إلى الشارع عندما دقت الساعة معلنة العاشرة، فتردد ووضع يده على ذراع دارتنيان. وقال: "أيها الشاب: خذ حذرك لأنك ربما تجد نفسك في مأزق لاشتراكك في هذه المسألة".

– هل تعتقد ذلك حقيقة؟

– إني أكثر من متأكد، فهل تعرف صديقاً له ساعة متأخرة؟.

– ماذا تعني بذلك؟

– إني أقصد أن تزوره حالا، فسوف يكون في استطاعته الشهادة بأنك كنت في زيارته الساعة التاسعة والنصف، وهذا يسمى في المحكمة عذر للتغيب عن مكان الجريمة، وقد بدت هذه التضحية حكيمة بالنسبة لدارتنيان، فأسرع في الحال ووصل إلى منزل م دي تريفيل في بضع دقائق، وبدلا من دخوله إلى قاعة الاستقبال حيث كان م دي تريفيل يتسامر مع عدد من الزوار، فقد طلب دارتنيان أن يدخل حجرة جانبية، وكان رجل الحرس هذا يقوم بزيارات لهذا المنزل مرات عديدة، ولما لم يكن في الزي الرسمي، فقد بدا طلبه عادياً، وأسرع التابع ليخبر م دي تريفيل أن دارتنيان يريد أن يراه لبضع دقائق ليخبره بشيء هام.

وما أن غادر التابع الغرفة حتى أسرع دارتنيان إلى رف المدفأة حيث توجد ساعة كبيرة محلاة بالذهب، وفتح غطاء الوجه الزجاجي وأرجع العقارب إلى الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والعشرين. وعندما دخل م دي تريفيل الغرفة. قال دارتنيان أتعشم يا سيدي أن تغفر لي زيارتي الغير متوقعة، فقد اعتقدت أنه لن تكون زيارتي لك متأخرة مادامت الساعة لم تتعد التاسعة والنصف.

– لم تحن بعد الساعة التاسعة والنصف؟ قال دي تريفيل في شيء من الدهشة وهو ينظر إلى الساعة: إني اعتقدت أن الوقت متأخر عن ذلك، وعندي بعض الزوار ولكن يمكنني منحك بضع دقائق.

فشرع دارتنيان في حديث طويل يتعلق بمخاوفه من ناحية الملكة، وتكلم عن خطاب الكاردينال المزور المرسل إلى دوق بكنجهام ليقع في الفخ، ويزري في الوقت نفسه بشرف الملكة، وذكر أيضاً مع بعض التفاصيل ما حدث لمدام بوناسيو، فأثار كل ذلك اهتمام م دي تريفيل، وخصوصاً وهو يعلم بعض الشيء عن مجريات الأمور، ولم تفته ملاحظة وجود لفيف من رجال الكاردينال في اللوفر أكثر مما تقتضيه حاجة العمل، ولما حانت الساعة العاشرة حسب ساعة المدفأة، طلب دارتنيان السماح له بالخروج معتذراً عما أخذه من وقت القائد، فشكر م دي تريفيل لدارتنيان معلوماته هذه، وهنأه على ولائه لمصالح الملكة، ثم أسرع راجعاً إلى زائريه في القاعة.

ومشى دارتنيان ببطء نازلا السلم حتى آخره، ثم صاح مظهراً من الضيق لنسيانه عصاه وأسرع صاعداً إلى السلالم إلى الحجرة التي غادرها تواً، وفي لحظة أرجع عقارب الساعة إلى الوقت المضبوط والتقط عصاه التي نسيها متعمداً من على الكرسي، وأسرع نازلا، وخرج من المنزل، وباختياره لـ م دي تريفيل تأكد دارتنيان من شاهد مشهود له بالصدق يعتمد عليه في عذره عن تغيبه إذ لا يستطيع أحد أن يشك في كلام شاهد كهذا.

المؤامرة تتعقد

ولقد كانت ليلة جميلة ولذلك قرر دارتنيان عندما غادر مسكن م دي تريفيل أن يتخذ طريقاً طويلا خلال الحدائق العامة، وجعل يقلب في ذهنه حوادث الأيام القليلة الماضية، ولانشغاله في التفكير العميق، لم يلاحظ الانحناءات المختلفة التي اتخذها، ولذلك لم يتنبه إلى مدى ما مشاه بعيداً إلا بعد أن أوشك على الوقوع لتعثر قدمه، وقد قادته خطاه هذه إلى هذا الجزء من المدينة حيث يسكن أراميس، ولقربه قرر أن يقوم بزيارة صديقه ليضيع الوقت وليتكلما عما جد من الأحداث، ودخل الطريق المظلل بالأشجار حيث يسكن أراميس عندما كانت الساعة تدق الحادية عشرة، ولسوء الحظ لم يكن أراميس موجوداً في المنزل كما كان يبدو من النوافذ المغلقة المعتمة، وكان الجو بديعاً وهواء المساء الرطب معطراً بما يهب من نسيم الحدائق، واضطجع دارتنيان طويلا إلى جذع شجرة سيكامور (من فصيلة شجر التين) الواسعة التفرع أمام منزل صديقه.

وكان على وشك الانصراف عندما لاحظ شيئاً يبدو كالظل يأتي من ناحية الطريق الصغير المتفرع من الطريق العادي من مسافة قريبة، متخذاً طريقه في اتجاهه، وكان هذا الشيء يلبس عباءة وغطاء للرأس، ولكن تكوين الجسم والخطوات الخفيفة دلت على أنها امرأة، وكان يبدو أن السيدة قلقة من أجل ألا يراها أحد، وذلك لأنها كانت تسرع من شجرة

إلى شجرة، وحيث كان الظل يحجبها عن الرؤية، وكانت تقف بين الحين والآخر وتلتفت حولها، وظل دارتنيان واقفاً بدون حراك في ظل الشجرة غير مرئي، ولم يكن متأكداً مما يجب عمله إما أن يقدم إلى السيدة خدماته، وإما أن يتركها وحدها ثم قرر أنه من الطبيعي أنها تعلم ما تفعله وتعرف إلى أين هي ذاهبة، ولذلك ظل دون أن يتحرك، واكتفى بالمراقبة، وجاءت المرأة في الطريق ببطء مترددة بين الفينة والأخرى، وكان يبدو أنها تعد المنازل، وعندما بلغت الشجرة الواقعة أمام منزل أراميس توقفت وسعلت سعالا خفيفا، ثم اقتربت من النافذة المغلقة وطرقتها بخفة ثلاث طرقات في فترات متساوية، وفي الحال سمع طرقتان حادتان على النافذة من الداخل، ثم أجابتها السيدة التي في الطريق بطرقة واحدة وبعد لحظات فتحت النافذة قليلا.

وفي ذلك الوقت كان دارتنيان منتبه السمع والبصر، ولأنه في ظل شجرة السيكامور العميق، ولأن عينيه متعودة على الظلام، فكان يرى بوضوح المرأة وحركاتها في ضوء النجوم الخافت، وضوء القمر الذي ابتدأ في البزوغ، فرآها تأخذ شيئاً أبيض من جيبها، وكان منديلا بدون شك، وتبسطه قليلا ثم تمسكه عالياً كما لو كانت تعرض أحد أركانه على شخص في داخل المنزل، فتذكر دارتنيان في الحال المنديل الذي كانت مدام بوناسيو متلهفة على إخفائه منه، ولذلك زحف مثل القط حول جزع الشجرة ليكون قريباً ليستطيع أن يرى أحسن وربما سمع شيئاً يقال، ولم تكن الكلمات التي قيلت واضحة، ولكن من رنة الأصوات كان يبدو واضحاً أن الشخص الذي بالداخل كان أيضاً امرأة، ثم أظهرت المرأة

التي بالداخل منديلا أبيض وتبادلته بالمنديل الأبيض الذي رأته. واستدارت المرأة التي في الطريق لتذهب، ولكن قبل أن تضع غطاء الرأس استطاع دارتنيان أن يرى لمحة من وجهها. فقد كانت زوجة صاحب المنزل مدام بوناسيو. وشهق شهقة دهشة مما جعلها تستدير، ولما رأته رجلا صرخت وهربت.

فقال دارتنيان لنفسه "يا للسماء! لابد أن هذا الأمر في غاية الأهمية. فمنذ أقل من ساعة طلبت م. لابورت ليرجعها إلى اللوفر والآن تجري في شوارع باريس معرضة نفسها لإلقاء القبض عليها مرة أخرى. إني لا استطيع فهم ذلك" وكان الحل الوحيد لاكتشاف الحقيقة هو تتبعها.

فجرى دارتنيان وراءها وأمسكها في لحظات. ولما رأت أنه ليس هناك مفر ركعت على ركبتيها في فزع، وفي صوت متهدج صرخت "اقتلني ولكن لن أقول لك شيئاً".

فرفع دارتنيان المرأة المرتعشة التي يوشك أن يغمى عليها وقال لها بلطف : لا تخافي.

وفي أول الأمر لم يمكنها أن تتعرف عليه إلا بعد أن أخبرها باسمه فتطلعت إليه بحدة، ولما تعرفت عليه صدرت منها صرخة فرح واطمئنان وتنهدت "شكراً لله إنه أنت.!!".

فقال دارتنيان نعم إنه أنا ويبدو أني أرسلت لأراقبك.

فسألته : – أبهذا القصد تتبعني.؟

فأجاب دارتنيان لا إني أؤكد لك. أنها كانت بمحض المصادفة أن رأيتك عند النافذة. إنك سيدة جذابة ولكن لابد أن تعترفي أنك غامضة جداً.

– أهذا ضد منفعتي؟

– لا بل بالعكس.

– إذن أعطني ذراعك.

– بكل سرور والآن...؟

– إنك سوف ترافقني.

– أين؟.

– سوف ترى بنفسك لأنك سوف تتركني عند الباب، ولكن لابد أن تعدني ألا تنتظرني.

– "بشرفي" أجاب دارتنيان ضد رغبته.

ثم أعطاها ذراعه وسارا الاثنان في خطوة شبه سريعة.

وفي منتصف شارع دي لاهارب ترددت مدام بوناسيو قليلا ثم وقفت أمام منزل رقم ٧٥ والتفتت مبتسمة إلى مرافقها ومدت له يدها.

وقالت: والآن يا سيدي يجب أن تتركني هنا وإني أشكرك ألف مرة لمرافقتك، أرجوك أن تتركني الآن إن الساعة تعلن منتصف الليل وهناك من يتوقعني الآن. فصافحها دارتنيان وأسرع مبتعداً.

وطرقت مدام بوناسيو ثلاث طرقات واضحة على الباب.

ولما التفت دارتنيان بعد ذلك بلحظة أو ما يقرب من ذلك كان الباب قد فتح وأغلق واختفت هي.

مقابلة منتصف الليل

واستمر دارتنيان في طريقه، إذ قد أعطى كلمته لمدام بوناسيو بألا يراقبها أو ينتظرها. وفي دقائق وصل إلى أول الشارع الموصل لمسكنه.

وقال لنفسه وهو يصعد السلم: إني أتعجب مما سوف يحدث بعد ذلك وإني متشوق لمعرفة نتيجة كل هذا.

– في غاية السوء يا سيدي، في غاية السوء، أجابه صوت بلانشت.

فقد ذكر دارتنيان بصوت مسموع مثله كمثل كثير من الناس وهم منهمكون في تفكير عميق، فسأله دارتنيان "عما تتكلم أيها الأبله ماذا حدث"؟.

– كل أنواع الأحداث السيئة.

– ماذا؟ اشرح.

– أولا قبضوا على أتوس.

– قبض عليه.. لماذا؟

– لأنهم وجدوه في مسكنك فقبضوا عليه وهم يظنونه أنت.

– من؟.

– من غير حرس أحضرهم رجال الكاردينال الذين طاردتهم من الطابق الأسفل منذ ساعة أو ما يقرب من ذلك.

ولكن من المؤكد أن أتوس قال لهم من هو وأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع.

– أوه لا. بل على العكس فقد قال إنه سوف يقطع أذني إذا فهمت بكلمة وأخذني على ناحية وهمس "إن سيدك يحتاج لحريته لأنه يعرف كل شيء وأنا لا أعرف شيئاً إنهم يعتقدون أنهم قبضوا عليه ولذلك سوف انتظر ثلاثة، أيام قبل أن أخبرهم بشخصيتي وأطلب إطلاق سراحي، وسوف يعطي له ذلك الوقت الكافي لعمل ما يجب عمله.

– فقال دارتنيان لنفسه أكثر مما لتابعه: برافو أتوس! أتوس وحده الذي كان يمكن أن يفكر في عمل هذا، ثم ماذا عملوا معه؟

– أخذه أربعة رجال لا أعرف إلى أين، ربما إلى الباستيل، أو إلى فورت ليفيك. وبقى اثنان مع رجال الكاردينال وهم يفتشون كل مكان ويفحصون أوراقك ثم ذهبوا كلهم وتركوا الأبواب والنوافذ مفتوحة على سعتها.

– هل حضر بورتوس أو أراميس؟

– لا يا سيدي.

– إذن أبق هنا وإذا أتيا أخبرهما بما حدث وأخبرهما أني سأنتظرهما عند فيركون فهنا خطر جداً من أجلي، ومن ناحية أخرى ربما كان المنزل مراقباً.

وأسرع دارتنيان ليخبر م. دي تريفيل بالقبض على أتوس.

ولسوء الحظ لم يكن م دي تريفيل في المنزل فقد كان الفرسان في حراسة اللوفر وكان هو معهم للتفتيش وشعر دارتنيان أنه من الواجب إبلاغ م دي تريفيل بدون تأخير ومن ثم قرر الذهاب إلى اللوفر وكان زيه كرجل من حرس الملك جواز مرور كاف.

فأسرع في الحال نحو النهر قاصداً أن يعبره بالمعدية، ولما وضع يده في جيبه لم يجد فيه نقوداً، ولذلك اضطر أن يذهب بحذاء النهر ويعبره على الجسر الجديد.

ولما اقترب من الجسر لفت انتباهه شخصان رجل وامرأة يقتربان من الجسر على نفس الطريق ولكن من الاتجاه المضاد وكانت المرأة في هيئة مدام بوناسيو والرجل شبه أراميس. ومن ناحية أخرى كانت المرأة ترتدي نفس العباءة وغطاء الرأس اللتين رآها تلبسهما والرجل في لباس الفرسان وكان غطاء رأس المرأة نازلا إلى أسفل والرجل يمسك بمنديل قرب وجهه.

فخفف دارتنيان من سرعة خطواته واتخذ طريقه ببطء وتفكير عبر الجسر، وقد قالت له مدام بوناسيو هذا المساء إنها لا تعرف لابورتوس ولا أراميس ولا أتوس، وبالرغم من ذلك فها هي ذي الآن في منتصف الليل مسرعة في شوارع باريس متأبطة ذراع رجل قالت عنه إنها لا تعرفه.

وكان دارتنيان مندهشاً وقلقاً في نفس الوقت لأنه كان مقتنعاً أن المرأة هي مدام بوناسيو، وبالرغم من وعده بعدم مراقبتها إلا أنه عزم على أنه لن يترك هذا اللغز الجديد يمر بدون أن يحله، ومن ثم عدل من خطاه بحيث أصبح الشخصان المسرعان وراءه تماماً عندما وصل إلى المصباح في وسط الجسر، فوقف فجأة واستدار ليواجههم.

فسأله الرجل بلهجة غريبة واضحة: ماذا تريد يا سيدي؟

وحينئذ تبين لدارتنيان بسرعة وبشيء غير قليل من الدهشة، إن هذا الرجل ليس أراميس، فصاح دارتنيان غير متمالكاً نفسه: إنك لست أراميس!.

فأجاب الرجل: لا يا سيدي إني لست أراميس، ومن الواضح أنك مخطئ واعتقدت أننا شخصان آخران اسمح لنا بالمرور.

ومع ذلك فإني لست مخطئاً تماماً إذ اعرف رفيقتك.

فقاطعته مدام بوناسيو بلهجة العتاب: سيدي إنك أعطيتني كلمة الشرف كرجل مهذب وأتعشم أن أستطيع أن أصدقك.

فابتدأ دارتنيان بصوت مضطرب: ولكن يا سيدتي أنا...".

فقال لها مرافقها متجاهلا دارتنيان: خذي ذراعي يا سيدتي واجعلينا نتصرف.

ولم يتحرك دارتنيان، وللمرة الأولى في حياته لم يعرف ماذا يفعل، أو ماذا يقول!

فتقدم مرافق مدام بوناسيو إلى الأمام، وزاح دارتنيان جانباً بيده، فقفز دارتنيان إلى الخلف شاهراً سيفه.

فصاحت مدام بوناسيو مندفعة بقوة بين الرجلين ماسكة سيوفهم بيديها العاريتين "بحق السماء أيها اللورد"!.

ففهم دارتنيان بسرعة، وقال "أيها اللورد اسمح لي يا سيدي ولكن أنت..؟".

فاستمرت مدام بوناسيو قائلة له بصوت منخفض: اللورد الدوق أوف بكنجهام، إنك الآن حطمت كل شيء.

أيها اللورد وأنت يا سيدتي أطلب عفوكم ألف مرة، اغفروا لي وأخبروني إذا كنت أستطيع أن أقوم لكم بأي خدمة بأي شكل.

فقال بكنجهام: ماداً يده لدارتنيان الذي أخذها باحترام لكن بحزم: "إنك تبدو شاب شجاع، وأنا أقبل عرضك بكل سرور وأرجوك أن تتبعنا على مسافة قصيرة حتى نصل إلى اللوفر واقتل أي شخص يتجسس علينا.

فوضع دارتنيان سيفه تحت ذراعه، وانتظر حتى مر الدوق ورفيقته بخطوات قليلة ثم تبعهما.

ولحسن الحظ لم يكن لديه فرصة لإعطاء الدوق دليل ولائه، وعندما وصل الرفيقان إلى باب اللوفر الجانبي في شارع ليشيل، طرقته مدام بوناسيو ببطء ثلاث مرات، ففتح الباب بسكوت واختفيا في داخله.

وانتظر دارتنيان لحظة وأسرع نحو مدخل القصر محاولا الاتصال بـ م دي تريفيل فأخبره ضابط الحراسة أن نوبة التفتيش قد انتهت، وأن م دي تريفيل ذهب ليقدم احترامه لجلالة الملك.

فكان عليه الانتظار حتى الصباح ليبلغ خبر القبض على أتوس لأنه كان من الواضح أن عمل أي شيء آخر غير ممكن.

وقال دارتنيان محدثاً نفسه وهو في طريقه إلى فيركون: على أي حال فإن أتوس ليس في خطر عاجل، ومن ناحية أخرى فإنه يسلي نفسه بمشاكسة الضابط المحقق في السجن، وعند فيركون وجد أراميس وبورتوس ينتظرانه، وأخبرهم عن أمر أتوس، ثم قال لهما بدون تفاصيل إن مسألة بوناسيو أصبحت محلولة، فطلب بورتوس زجاجة خمر أخرى وهو يتنهد من الضيق، وملأوا كؤوسهم وشربوا نخب صديقهم الغائب وهرج أعدائهم.

دوق بكنجهام يعترف

وأقفلت مدام بوناسيو الباب الصغير الجانبي وراءها وقادت الدوق بجانب الحائط لمسافة قصيرة، ووصلوا إلى مدخل الخدم الذي يفتح بالنهار ويتحتم أن يكون مغلقاً بالليل، فدفعته مدام بوناسيو ففتح عند لمسها ثم أقفلته بعد أن دخلا وأحكمت رتاجه، فصاروا إذن في ظلام تام، ولكن مدام بوناسيو تعرف كل منحنى في الممرات والدهاليز وكل درجة في السلالم، وأخذت الدوق بيدها وصعدت به ببطء بعض درجات السلالم، ثم قادته في دهليز ذات انحناءات كثيرة، وفي آخر هذا الدهليز فتحت قفل أحد الأبواب ودفعت الدوق بلطف داخل حجرة صغيرة تضيئها شمعة واحدة إضاءة خافتة.

وهمست قائلة: ابق هنا أيها اللورد. فسوف يحضر إليك أحد الأشخاص حالا، ثم أقفلت الباب بعناية وراءها.

وبعد دقائق قليلة فتح باب مختف وراء ستائر ثقيلة، ودخلت منه امرأة وكانت آن ملكة فرنسا، وكان معها دونا استفانيا المرأة الإسبانية الوحيدة التي لم يبعدها بعد الملك الغيور ولا ريتشليو المدبر.

وكانت الملكة حينئذ في السادسة والعشرين، أي في ذروة جمالها التام، وظل الدوق لحظة بدون حراك أو كلام، إذ لم تظهر له الملكة قبل الآن بمثل هذا الجمال.

وخطت الملكة خطوة للأمام وركع بكنجهام على ركبة واحدة أمامها.

فقالت بلطف: أيها اللورد إنك علمت قبل الآن إنني لست من أرسل لك الخطاب!.

فأجاب الدوق: نعم يا سيدتي، نعم يا صاحبة الجلالة، كان لابد أن أكون مجنوناً أو عديم الإحساس عندما أصدق أن الحياة تدب في الثلج، أو أن الرخام دافئ، على أي حال لم أخسر شيئاً من سفري هذه الرحلة لأني أراك الآن.

– ولكن أيها اللورد إنك تعلم لماذا وتحت أي ظروف أراك الآن! إنك تخاطر بحياتك وبشرفي بمجيئك إلى فرنسا خلسة، وقد وافقت على رؤيتك لأقول لك إننا يجب ألا نتلاقى بعد الآن.

– إن عذابة صوتك يا مليكتي تغطي قسوة كلماتك، وليس هناك في الدنيا من يستطيع أن يفصل قلبين يملكهما كل منا.

فقالت الملكة بحنان: أيها اللورد إنك تنسى أني لم أقل لك أحبك.

– على أي حال لم تقولي لي لا أحبك، إننا الآن بعد ثلاث سنوات من لقائنا الأول هل أقول لك ماذا كنت ترتدين حينذاك؟ هل أصف لك

كل حلية كنت تلبسينها؟ إني أقفل عيني وأراك كما كنت وقتئذ وافتح عيني الآن وأراك أجمل بمئات المرات عن ذلك الحين.

فتمتمت الملكة ولو أنها كانت متأثرة بكلمات الدوق يا للجنون! ما هذا الجنون الذي يلهب حبك على ذكريات محضة!

– واأسفاه لا أملك إلا ذكرياتي فهي أملي وكنزي وسعادتي الوحيدة، إن كل مرة أراك فيها هي جوهرة أضمها في جراب قلبي، هذه هي الرابعة التي جعلتيها تقع والتقطتها أنا، لم أرك في ثلاث سنوات إلا أربع مرات فقط: الأولى في حفلة الرقص الملكي، والثانية في قصر مدام دي شيفرس، والثالثة في حفلة الحديقة في أميين.

فقالت الملكة تعروها حمرة الخجل أيها اللورد: إن تأثير الحدائق وسحر السماء والغدران الجميلة قد اجتمعت لتسمح لنا بالكلام لحظات معدودة، فل من الإنصاف أن يكون كل هذا مجلبة لسقوطي؟ على أي حال أيها اللورد لابد أن تتذكر أن الملكة كامرأة لا تستطيع فعل كل ما تريد.

– إذن كنت تحبيني لو لم تكوني ملكة، قولي يا سيدتي إنك كنت تحبيني، لابد أن كرامة المركز فقط هي التي تجعلك قاسية هكذا علي؟

– فتمتمت الملكة: آه يا إلهي، إن هذا أكثر مما احتمل، باسم السماء لا أعرف إذا كنت أحبك أم لا، ارحمني واتركني في الحال، فلو حدث لك سوء في هذه البلاد فسوف أجن من الحزن، فاذهب أرجوك.

– فقال بكنجهام بهدوء كما لو أنه لم يسمعها: كم أنت جميلة، كم أحبك..

– فقالت الملكة بصوت مرتعش: أيها اللورد أرجوك أن تذهب في الحال، وأكملت وهي تهمس: ارجع كسفير، ارجع كوزير، ارجع محاطا بحرس يحمونك ومعك خدم يرافقونك ويراقبونك، وحينئذ لن أخاف على حياتك وسوف أكون مسرورة لرؤياك في بعض الأحيان مكرماً في القصر.

– هل تقصدين ما تقولينه؟

– نعم.

– إذن أعطيني شيئاً ليذكرني أني لم أكن أحلم، أعطيني شيئاً لبستيه ويمكن أن ألبسه: خاتم، عقد، سلسلة.

– وإذا فعلت هل تذهب في الحال؟.

– نعم.

- وهل تغادر فرنسا أيضاً؟.

- إني أعدك.

- إذن انتظر لحظة.

- وغادرت الملكة الحجرة وغابت بضع دقائق وعادت ومعها كيس صغير عليه الحروف الأولى من اسمها من الذهب.

- وقالت: خذ هذا أيها اللورد واحتفظ به. وفي بعض الأحيان إلبس ما تحتويه لتذكرني.

- فأخذ بكنجهام الكيس، ومدت الملكة يدها والدموع في عينيها، فقبلها بكنجهام وهو يضغط بشفتيه على يدها، وأسرع خارجاً من الحجرة براً بقسمه، وكانت مدام بوناسيو تنتظره في الدهليز، فخرجا من اللوفر بدون أن يراهم أحد نظراً لحذرهم وحظهم السعيد.

مسيو بوناسيو في الباستيل

بعد القبض على بوناسيو تم اقتياده إلى الباستيل ، وكان هذا كافياً لجعله بائساً، وجعل الضابط المحقق المحنك في هذه المهنة الرجل البائس يعتقد أنه إن لم يتكلم بكل صراحة فإن لديه الوسائل الغير مرغوبة لجعله يتكلم، وبدلا من استجواب السجين ألقى الضابط كلاماً طويلاً يشير به إلى الخطر الجسيم الذي ينتظر المدنيين غير ذوي الأهمية الذين يتدخلون في الشئون العامة، وأفاض في شرح قوة صاحب الفخامة الكاردينال ثم طلب إليه أن يتبين حرج مركزه، كل هذا وهو يحدجه بعينين كعيون الصقر، والرجل المسكين يرتجف أمامه. ولم يكن كل هذا ضرورياً لأنه لم يمض غير لحظتين على تفكير بوناسيو حتى شرح كيف أنه ليس هناك من يحترم ويقدر ويكرم صاحب الفخامة الكاردينال، ولا يعتقد من حظ فرنسا الحسن عندما يسوسها رجل سياسي نبيل مثل صاحب الفخامة الكاردينال، إنه ليس هناك من يقدر هذا كله أكثر منه نفسه.

فقال الضابط: حقيقة، إذا كان الحال هكذا فكيف حدث أن جئت إلى هنا في الباستيل متهماً بالخيانة وعدم الولاء؟

الخيانة! الخيانة! كيف يمكن لتاجر مسكين مثلي أن يتهم بالخيانة؟

فسأله الضابط متجاهلا سؤال بوناسيو: لديك زوجة أليس كذلك؟

– نعم يا سيدي، هذا يعني أنه كان عندي زوجة.

– هم! وماذا فعلت بها مادامت ليست معك؟

– إنه اختطفها يا سيدي.

– فسأله الضابط بحدة من؟

– أنا، أنا غير متأكد يا سيدي، قال بوناسيو وهو خائف مما لو كان قد قال أكثر من اللازم. أنا. أنا أشك فقط.

– حسناً. وفيمن تشك؟

فكان بوناسيو المسكين في مأزق حرج لا يمكن الفرار منه، هل يقول كل شيء أم ينكر كل شيء؟ فإذا أنكر كل شيء ظنوه يعلم الشيء الكثير ويخاف الكلام، وإذا قال كل شيء ربما اعتبروا ذلك دليل استعداده للمساعدة، ولذلك فقد قرر أن يجيب على كل الأسئلة على قدر استطاعته.

– فقال أنا أشك أن يكون هو رجلا طويلا أسمر، ويظهر على ملامحه أنه نبيل، وقد أشارت عليه زوجتي وأنا أرافقها إلى اللوفر حيث تعمل.

وقالت لي: إنه طالما تابعها وهي تشتري حاجاتها من السوق.

وعند سماعه هذا الوصف ظهر بعض الضيق على الضابط.

- ما اسمه؟

- أنا لا أعرف اسمه، ولكن على أي حال استطيع التعرف عليه حتى ولو كان بين آلاف الناس.

فازداد ضيق الضابط.

- في الحال بين آلاف من الناس، قال الضابط بحدة.

فابتدأ بوناسيو يقول: وقد رأى أنه قال أكثر من اللازم هذا يعني. هذا يعني.

فقال الضابط وهو يكتب بسرعة: إنك قلت إنك تستطيع التعرف على الشخص، وقبل أن نتابع حديثنا الطلي هناك لابد أن يعرف أنك تعرف الشخص الذي خطف زوجتك.

فصاح بوناسيو في يأس: ولكن أنا لم أقل لك إني أعرفه، بل على العكس أنا قلت لك...".

فقال الضابط بدون أن يرفع عينيه عن الكتابة: خذوا هذا السجين بعيداً أيها الحراس.

فقال أحد الحراس: أين نضعه؟

فقال الضابط وصبره نافذ: إلى زنزانة بالطبع.

أي واحدة يا سيدي؟

فصاح الضابط: يا للسماء، في أول زنزانة تجدونها خالية على شرط أن تكون مأمونة.

فقال الرجل المسكين بأنين: واأسفاه، واأسفاه، ما هي الجريمة الشنيعة التي ارتكبتها زوجتي، إنهم يعتقدون أني ساعدتها، ومن المؤكد أنهم سيعاقبونني معها. زنزانة. أول زنزانة نقابلها. آه، ها هي سوف تمر ليلة سريعة، ثم المشنقة، ارحمني يا إلهي.

وكان الحراس قد ألفوا مثل هذا الأنين والصراخ، فقادوه وهو مغمى عليه تقريباً إلى زنزانة، وانتهى الضابط من خطابه سريعاً، ونادى لتابعه الخاص ليسلمه في الحال.

ولم يغمض لبوناسيو جفن في هذه الليلة، فقد كان جالساً في أحد أركان الزنزانة يتنهد تنهدات تلبين الحجر (وتلين قلب النمر).

وازدادت مخاوفه لما اقترب الفجر وتجمع العرق في قطرات كبيرة على جبهته. وفجأة أزيحت متاريس باب الزنزانة بضجة، فقفز قفزة واحدة من الخوف ثم ارتمى على الأرض، معتقداً أنهم سيأخذونه ليشنقوه، ولكنه لما رأى الداخل هو تابع الضابط المحقق وليس الحراس، أوشك أن يأخذه بين ذراعيه.

التباس في الشخص الخطأ

وأخذوا بوناسيو إلى الضابط المحقق لسؤاله مرة أخرى.

فابتدأ الضابط قائلا: "إن مسألتك أصبحت جدية عن الليلة الماضية، والطريقة الوحيدة لتفادي غضب صاحب الفخامة هو أنك تفضي بكل شيء في صدرك.

فقال بوناسيو: إني مشتاق لأقول لك كل شيء، أي كل شيء أعرفه.

– أولا أين زوجتك؟.

– لماذا؟ إني قلت لك إنهم اختطفوها.

أنا أعرف أنك قلت لي، ولكنها هربت بالأمس بعد الظهر بمساعدتك.

– هربت. صدقني يا سيدي إن هي فعلت ذلك فليست غلطتي.

– إذن اشرح لماذا قمت بزيارة جارك م دارتنيان بالأمس، وتكلمت معه طويلا؟

– آه نعم يا سيدي، إني زرته حقيقة، ولكن يبدوا أني أخطأت في عمل ذلك.

– لماذا زرته؟

– رجوته أن يساعدني في البحث عن زوجتي، فقد تصورت حينئذ أن لي الحق في البحث عنها ولكن يبدو أني أخطأت ولذلك أرجو معذرتك يا سيدي.

– وماذا كان جواب م دارتنيان؟

– وعدني م دارتنيان أن يساعدني، ولكني اكتشفت في الحال أنه خانني.

– كفى كلاماً فارغاً، إنك عملت ترتيبات معه كان من نتيجتها أنه طارد رجال القانون الذين اعتقلوا زوجتك ومنذ ذلك الحين وهو مخفيها في مكان ما.

– فقال الرجل اليائس وهو يئن ولا يعرف ما يقول في ساعة ضعفه: م دارتنيان هو.. هو خطف زوجتي"؟.

– لحسن حظك أن م دارتنيان في قبضتنا وسوف أحضره هنا.

– قسماً يا سيدي إني لا أطلب أكثر من ذلك، ولن أكون آسفاً على رؤية وجه شخص أعرفه.

– فقال الضابط للحراس: "احضروا م دارتنيان".

– فدخل حارسا وبينهما أتوس.

– فصاح بوناسيو مندهشاً: ولكن هذا ليس م دارتنيان.

– فسأله الضابط وهو لا يكاد يصدق أذنيه: ماذا، ليس دارتنيان؟

– فأجاب بوناسيو: لا يمت إلى شكله بصلة.

– إذن ما اسم هذا الرجل؟

– هذا ما لا استطيع أن أخبرك به، فإنني حتى لا أعرفه.

– فصاح الضابط فاقداً السيطرة على نفسه: ماذا! لا تعرفه؟

– لا.

– ألم تره من قبل؟

– نعم. فقد رأيته، ولكني لم أقابله ولم أكلمه.

– فالتفت الضابط إلى أتوس وقال له: ما اسمك؟

– فأجاب الفارس بهدوء: أتوس.

– فقاطعه بوناسيو– وقد ابتدأ يفقد السيطرة على أعصابه– ولكن ليس اسم رجل بل هو اسم جبل.

– فقال أتوس هذا اسمي.

– فقال الضابط: ولكنك قلت أن اسمك دارتنيان.

– أنا؟.

– نعم أنت.

– فيما يتعلق بذلك فقد قال لي الحراس: أنت دارتنيان فأجبتهم: هل تعتقدون ذلك؟ فقالوا: إنا واثقون، وطبيعي لم أرغب في مناقضتهم لئلا ارتكب خطأ.

– سيدي: إنك أهنت ضباط القانون.

– فأجاب أتوس بهدوء ليس تماماً.

– فضرب الضابط المائدة بقبضة يده صائحاً: ولكنك م دارتنيان.

– فقال أتوس بابتسامة: ها هو ذا أنت تقولها الآن.

فقال بوناسيو وهو لا يستطيع أن يظل ساكتاً أكثر من ذلك: هناك شيء ما في الأمر بدون شك! إن م دارتنيان مستأجر في منزلي، ولو أنه

لا يدفع لي الإيجار، ولهذا فإني أعرفه وقت أن أراه. م دارتنيان شاب صغير جداً في حين أن هذا الرجل لا يقل عمره عن ثلاثين سنة، كما أن م دارتنيان في فرقة الحرس تحت قيادة م دي إيزارت، لكن هذا الرجل أحد فرسان م دي تريفيل، انظر إلى زيه يا سيدي، انظر إلى زيه.

– فقال الضابط لنفسه تقريباً "هم! يبدو أنه الحقيقة".

– وفتح الباب في هذه اللحظة وسلم أحد الجنود رسالة إلى الضابط.

– فقال الضابط وهو يقرأ الرسالة: يا للمرأة التعيسة.

– فتساءل بوناسيو: ما هذا الذي تقوله يا سيدي؟ أتعشم ألا يكون هناك علاقة بين هذا وزوجتي.

– بل أقصد هذا بالتأكيد فإن مسألتك تزداد سوءاً على سوء.

– فقال بوناسيو باستعطاف: ولكن يا سيدي أخبرني كيف تسوء أحوالي الشخصية بأفعال زوجتي وأنا في السجن.

– كيف؟ لأن ما تفعله هي الآن ما هو إلا جزء من خطة سبق تدبيرها بينكما من قبل.

- إني أقسمت لك يا سيدي على أني لا أعلم شيئاً عما تفعله زوجتي، إنك مقدم على غلطة شنيعة يا سيدي، إني بريء من كل شيء، إني.."

- فقال أتوس للضابط بهدوء: إذا لم تكن في حاجة إلى بعد فأرسلني إلى مكان آخر. فإن م بوناسيو لا يحتمل.

- فأشار الضابط إلى الحراس أن يبعدوا السجينين.

- وقال خذوهما بعيداً واحرسوهما حراسة أدق عما قبل.

- فقال أتوس بهدوء بدون أن يتحرك من مكانه: إذا كانت أمورك تتعلق بـ م دارتنيان فإني لا أرى داعياً مطلقاً لوجودي في هذا المكان.

- فصاح الضابط في الحراس: خذوهما إلى مكانهما الأول، ولا تبوحوا بأي كلمة إن هذا من أمور الدولة.

- فهز أتوس أكتافه واستدار وسار خلف حراسه، وأخذوا م بوناسيو إلى زنزانته وهو يبكي ويئن.

وقد استجوبوا أتوس مرة ثانية بواسطة الضابط المحقق في قلعة ليفورت، حيث كان مسجوناً، وقد شرح أتوس بهدوء إنه لا يعرف م بوناسيو أو زوجته، ولم يكلم أحداً منهم، وقال: كيف إنه زار صديقه م دارتنيان في الساعة العاشرة، وقد كانت زيارته متأخرة، ولكنه تأخر بسبب

مأدبة م دي تريفيل حيث تناول العشاء مع حوالي العشرين شخصاً، وذكر أسماء بعض رجال المتجمع البارزين.

وسرعان ما اضطرب الضابط المحقق كما اضطرب زميله في الباستيل، ولما كانا من رجال الكاردينال فكان يهمه أن يحصل على براهين ضد الفرسان، ولكن الشاهد الذي ذكر اسمه أتوس وهو م دي تريفيل هو وضيوفه البارزين، كل هذا جعل الضابط متردداً في الاحتفاظ بسجينه أطول من هذا، ولما كان لا يجرؤ على إطلاق سراحه فقرر أخيراً أن يرفع تقريراً إلى حاكم السجن وينتظر التعليمات.

مسيو بوناسيو يجيب على بعض الأسئلة البريئة

وكان بوناسيو يجلس طوال اليوم واضعاً رأسه بين كفيه، ما عدا فترات تناول الطعام، وكان متحفزاً لأقل الأصوات.

وفتح باب زنزانته حوالي الساعة التاسعة من ذلك المساء.

– وقال الحارس أتبعني.

– فصرخ بوناسيو أتبعك! في هذا الوقت من المساء. يا ربي يا ربي. إني مفقود في هذه المرة.

– وتبع الحارس بدون مقاومة وهو لا يعرف ماذا يعمل.

ولما شعر بالهواء النقي يلفح وجهه الملتهب علم أنه وصل إلى ساحة السجن، فنظر حوله بشغف، وكانت هناك عربة تنتظر، وقيل له أن يركبها، هذه كانت النهاية بالتأكيد، وكانوا يأخذونه للجلاد، فصدرت عنه آهة ضعيفة كأنها صادرة من رجل ميت، ثم أغمى عليه.

وبعد مسير قليل وصلت العربة إلى شارع دي بون انفات، الذي يمتد بجانب الجهة الخلفية لقصر عظيم، ثم وقفت العربة بجانب باب منخفض وفتح الباب بهدوء بإشارة، وأخذ رجلان من الحرس بوناسيو من ذراعي حارس السجن الذي كان جالساً يسنده، وقد كانوا يحملونه كل

من جانب عبر الممرات العديدة وفوق بعض السلالم حتى وصلوا إلى قاعة فتركوه فيها.

وقد سار بوناسيو مع حرسه وكأنه في حلم، فكان يرى الأشياء وكان الضباط يكتنفها وقد سمع بأذنيه بعض الأصوات ولكنه لم يفهم منها شيئاً، وكان من المحتمل أن يشنق بدون أن يأتي بحركة ليحمي نفسه، ولا أن يصرخ ليطلب الرحمة. ورجع إليه شعوره بالتدريج فوجد نفسه جالساً في قاعة جميلة الأثاث، وكان ظهره للحائط ويديه بجانبه تماماً كما تركه الحراس، وابتدأ يشعر ببطء أن مخاوفه ربما كانت زيادة عن اللازم وجعل يتلفت إلى يمينه وشماله ويتطلع إلى أعلى وأسفل، ولما لم يجد من يمنعه تجرأ وسحب إحدى رجليه ثم الأخرى، وأخيراً بمساعدة كلتا يديه رفع نفسه عن المقعد ووجد نفسه واقفاً على قدميه، ودخل في هذه اللحظة رجل من حجرة جانبية وكلمه.

– وسأله بأدب هل اسمك بوناسيو؟

– فتلعثم بوناسيو قائلا: بصوت لا يسمعه أحد، نعم يا سيدي، نعم أيها اللورد، نعم يا سيدي، أنا في خدمته يا سيدي.

– فقال له الرجل: أدخل من فضلت متنحياً جانباً ليجعله يمر.

– فأطاعه بوناسيو وبأقدام مرتجفة، دخل مكتباً واسعاً أنيق الأثاث.

– وكان الكاردينال ريشيليو يقف أمام المدفأة، لم يكن في ملابسه أي شيء يدل على مكانته العالية، وقد كان من المستحيل على أي شخص أن يخمن من هو ما لم يكن يعرف وجهه.

وسلم الرجل التابع بعض الأوراق إلى الكاردينال وخرج من الحجرة.

وكان بين الوقت والآخر يرفع صاحب الفخامة عينيه عن الأوراق وينظر بثبات إلى بوناسيو.

وأخيراً قال الكاردينال: إنك متهم بالخيانة العظمى.

فقال بوناسيو: مستعملا نفس اللقب الذي سمعه من التابع، قيل لي هذا أيها اللورد، ولكن أؤكد لك أيها اللورد أني بريء.

وقد أخفى الكاردينال ابتسامة بصعوبة.

إنك تآمرت مع زوجتك ومدام دي شيفورس ومع دوق بكنجهام.

إني سمعت زوجتي تذكر هذه الأسماء أيها اللورد.

متى؟

قالت إن الكاردينال ريشيليو استدرج دوق بكنجهام بحيلة إلى باريس ليحطمه ومعه الملكة كذلك.

فسأل الكاردينال بحدة: هل هي قالت ذلك؟

نعم أيها اللورد، ولكني قلت لها إنها مخطئة في مثل هذه الأشياء، لان صاحب الفخامة ليس في استطاعته..

فقاطعه الكاردينال بحدة: "امسك لسانك إنك أحمق".

– هذا هو ما قالته زوجتي أيها اللورد.

– هل تعرف من اختطف زوجتك؟

– لا أيها اللورد، كان لدي بعض الشكوك، ولما كانت لا تسر الضابط المحقق في الباستيل لم يعد لدي شكوك.

هل تعلم أن زوجتك قد هرت؟

– لقد قال لي هذا الضابط المحقق هذا الصباح. رجل طيب.

ومرة أخرى تغلب الكاردينال بصعوبة على إخفاء ابتسامة.

– عندما كنت تذهب إلى اللوفر لتحضر زوجتك، هل كنتم ترجعون إلى منزلك مباشرة؟

– لا. فكان عندها بعض الأعمال عادة مع ناسجي الكتان في الطريق.

– من هؤلاء النساجين؟

- إني لا أعرف أسماءهم، ولكن أحدهم يسكن رقم ٢٥ شارع دي فوجيرارد والآخر رقم ٧٥ شارع دي لاهارب.

- هل تدخل هذه الأماكن معها؟

لا أيها اللورد، فهذه مساكن خاصة، فهي عادة كانت تطلب مني أن انتظر عند الباب، وفعلا كنت انتظر.

- فقال الكادرينال: إنك زوج طيب جدا يا عزيزي بوناسيو.

- فجعل بوناسيو يفكر: آه إنه يلقبني عزيزي بوناسيو إن الأمور تجرى حسناً على ما يبدو.

- ودق الكاردينال جرس مكتب فضي فدخل تابعه في الحال.

- ابحث عن الكونت دي روشفورت وقل له إني أطلبه حالا.

- فأجاب التابع: إنه في غرفة الانتظار ليراك يا صاحب الفخامة.

- فتمتم بوناسيو وعيونه في اتساع الطبق من "الدهشة صاحب الفخامة"!

- وفتح الباب ودخل الكونت دي روشفورت.

- فصرخ بوناسيو إنه هو.

- فسأله الكاردينال مبدياً بعض الضيق هو؟ من؟

– إنه الرجل الذي خطف زوجتي.

– فدق الكاردينال جرسه بحدة.

– وقال للتابع حال ما ظهر: خذ هذا الرجل ثانية إلى حراسه وأحفظه إلى أن استدعيه.

– فصرخ بوناسيو لا أيها اللورد، يا صاحب الفخامة، إنه ليس هو، إني مخطئ. هذا رجل آخر بالمرة، هذا رجل شريف أيها اللورد.

فقال الكاردينال وهو فارغ الصبر: أبعدوا هذا الأحمق.

الكاردينال ريشيليو ينصب فخًا آخر

انتظر روشفورت حتى أغلق الباب ثم تكلم وقال:

_ لقد اجتمع الدوق والملكة.

– أين؟

– في اللوفر.

– من أخبرك؟

– "مدام دي لانوي، وهي أحدى وصيفات الملكة وهي مخلصة لفخامتكم كما تعرف".

– "ومتى تم ذلك ؟".

– " في حوالي الساعة الثانية عشر والنصف من الليلة الماضية والملكة جالسة تتكلم مع وصيفاتها، دخلت إحدى السيدات كانت في الانتظار وناولتها منديل مطبق".

– "ثم ماذا؟".

– "وارتعشت يدا الملكة وشحب وجهها، ووقفت وطلبت من وصيفاتها بصوت مضطرب أن ينتظروها حتى ترجع. وخرجت من باب جانبي مصطحبة وصيفتها الأسبانية".

- "كم من الوقت غابت"؟.

- "حوالي من نصف ساعة ولكن عادت إلى الغرفة في خلال هذا الوقت لتحضر كيساً فضياً صغيراً".

- فسأل الكاردينال بشغف "عندما عادت الملكة بعد ذلك، هل كان الكيس معها؟".

- "لا يا صاحب الصخامة".

- "هل تعرف مدام دي لانوي ماذا كان بداخل الكيس؟"

- "حلية ثوب فيها اثنتا عشرة ماسة الذي أعطاها الملك للملكة حديثاً في عيد ميلادها".

- "ربما أرسلتها الملكة إلى الجواهرجي للتنظيف؟".

- "قمت بزيارة الجواهرجي هذا الصباح وقد قال إنه ليس لديه أي حلي للملكة سواء للتنظيف أو التصليح".

- "هل تعلم أين كانت تختبئ الدوقة دي شيفرس مع دوق بكنجهام في باريس؟"

" لا يا صاحب الفخامة لم يكتشف أتباعي هذا بعد".

"على أي حال فأظن أني أعرف ربما كان أحدهم في ٢٥ شارع دي فوجيرارد والآخر في ٧٥ شارع دي لاهارب. خذ عشرة من رجالي

وفتش كلا المنزلين. واعتقل الدوق والدوقة، هذا إذا لم يكن العصفوران قد طارا".

وجعل الكاردينال يفكر في الأمر لبضع دقائق بعد ذهاب رئيس مساعديه. وعندما قر رأيه دق جرسه لتابعه وأمره أن يحضر بوناسيو.

وقال الكاردينال لبوناسيو "إنه يبدو أن اتهمت ظلما. فخذ هذا الكيس وفيه ثلاثمائة بستولات وأتعشم أن تغفر لي ما قد لحقك من إساءة".

فشهق بوناسيو قلائلا وهو لا يستطيع أن يصدق أذنيه "أغفر لك يا صاحب الفخامة! ولكنك عندك كل الحق في اعتقالي. أنك تستطيع أن تعذبني. أنك تستطيع أن تشنقني، إنك السيد أما أنا فلا شيء إني أغفر لك يا صاحب الفخامة من المؤكد أنك لا تقصد ذلك".

فقال الكاردينال مبتسما: نعم أقصد ذلك، وتستطيع أن ترى أني كريم كذلك وأنا لا أريد أن تذهب وأنت غير سعيد، وأجور أن نتقابل ثانياً يا صديقي.

– أي وقت يشاء صاحب الفخامة، أنا دائماً تحت أوامر فخامتكم.

فربت الكاردينال على كتفه وأشار له بالذهاب.

وما أن برح الغرفة حتى أخذ لسان بوناسيو في الثرثرة.

فأخذ يصيح "لقد لمسني الكاردينال بيده، لقد لقبني الرجل العظيم بصديقه، ليعيش الكاردينا". وهكذا سار في طريقه خلال الممرات يتغنى بفضل الكاردينال حتى خرج، وكان الكاردينال يسمع وهو يبتسم.

وقال لنفسه: "حسناً، فسوف يفعل هذا الرج الآن كل شيء أطلبه منه بدون سؤال" ورجع الكونت دي روشيفوت بعد قليل.

فسأله الكاردينال بشغف. حسناً؟

- فقال روشيفورت: إن صاحب الفخامة كان على حق، لقد سكن المنزلين اللذين ذكرهما صاحب الفخامة سيدة ذات أهمية وسيد نبيل، ولكن السيدة تركت المنزل الليلة الماضية، أما السيد فترك المنزل هذا الصباح.

- فقال الكاردينال لنفسه أكثر مما للكونت: "إني كنت على حق، إن الوقت أصبح متأخراً لمتابعتهم، إن الدوقة في تور الآن والدوق في طريقه إلى انجلترا، إذن لابد من البحث عن الماس في لندن.

- ها هي تعليمات فخامتكم؟

- فجعل الكاردينال يذرع الحجرة مرات قبل أن يجيب.

- لابد ألا يعرف أحد ما حدث، وعلى الأخص لابد أن تجهل الملكة حقيقة أننا نعرف سرها.

بوناسيو: إني أطلقت سراحه وأعطيته كيس نقود وهو يتغنى بكرمي

في العالم كله، قال الكاردينال مبتسماً: إنه الرجل المطلوب لمراقبة زوجته، فكن على صلة به، والآن أرسل لي فيتراي في الحال.

- وجلس الكاردينال إلى مكتبه وبعد بعض اللحظات من التفكير كتب الخطاب التالي وتركه بدون توقيع.

سيدتي: رتبي أن تحضري أول حفلة يحضرها دون بكنجهام سوف يرتدي على سترته حلة مدلى منها اثنتا عشر حجراً ماسياً، اقطعي اثنتين منها وأخبريني ساعة ما يكونا في حوزتك.

- وأغلق الظرف عليه بعناية- الذي يحمل عنوان: ليدي ونتر- لندن.

- وقال ساعة أن ظهر الرجل فتراي: أطلب منك أن تسافر إلى لندن في الحال، وتسلم هذا الخطاب شخصياً إلى ليدي ونتر، وهذا أمر إلى الصراف بمائتي بستولات، وسوف انتظر رجوعك في خلال ستة أيام.

فأخذ الرسول الخطاب والأمر وانحنى، ثم أسرع خارجاً من الحجرة.

دي تريفيل يظهر عزمه

كان م دي تريفيل أكثر من قائد بالنسبة إلى الفرسان فوقت أن يلبس أي رجل حلة الفرسان يصير متأكداً من مساعدة ومعونة م دي تريفيل تماماً كما لو كان شقيقه.

فما أن سمع تريفيل باعتقال أتوس ابتدأ باستعلاماته عن مكان سجن الفارس وظهر حالا أنه كان مسجوناً من سجن فورت ليفيك. وفي السجن أخبر الحاكم تريفيل أن السجين الذي يصر على تسمية نفسه أتوس لا يمكن إطلاق سراحه إلا بتصريح كتابي من صاحب الفخامة الكاردينال ريشيليو.

وأضاف الضابط "في الحقيقة أن السجين اعتقل بناء على أوامر فخامته".

وبدون إضاعة أي وقت اتخذ م دي تريفيل طريقه إلى اللوفر ليقدم شكواه إلى الملك شخصياً وليحصل على الإفراج عن أتوس، وكان لتريفيل الحق في الدخول مباشرة إلى صاحب الجلالة بصفته قائد حرس الملك.

وعلم في اللوفر أن الكاردينال مع الملك، وهذا جعل تريفيل مصمماً أكثر على إطلاق سراح أتوس قبل أن يتأخر الوقت، وكذلك إذا

كان مستطاعاً أن يسرع الكاردينال في تنفيذ خطته فتنقلب رأساً على عقب نتيجة إسراعه هذا.

فقال الملك لتريفيل حال أن دخل: أنك حضرت في الوقت المناسب، فقد بلغتني بعض الأمور عن فرسانك.

فأجاب تريفيل ببرود: وأنا كذلك لدي بعض الأمور لجلالتكم عن البوليس المدني وضباطه.

واستمر تريفيل بنفس الصوت البارد: ولي الشرف أن أخبر جلالتكم أن جماعة اقتحمت أحد المساكن الخاصة وألقت القبض على أحد فرساني، أو على الأصح أحد فرسانك وقد سيق عبر الشوارع كلص عادي وسجن في فورتك ليفيك، ثم كل هذا بناء على أمر لا يريد أن يريه لي ضابط السجن، وهذا الفارس ذو شخصية وولاء وأخلاق لا ريب فيها، وجلالتكم تعرفونه إذ هو م أتوس.

فقال الملك: أتوس. أتوس. نعم في الحقيقة أعرفه.

فقال تريفيل: لا ريب أن جلالتكم تتذكرون أن أتوس هو الفارس الذي أجبر على المبارزة بواسطة م دي كوساك أحسن رجل سيف في حرس صاحب الفخامة– وقد جرح رجل الحرس بكل أسف جروحاً كثيرة، وبهذه المناسبة أضاف تريفيل ملتفتاً إلى الكاردينال: أرجو أن يكون م دي كوساك قد تم شفاءه الآن.

فقال الكاردينال والغضب ظاهراً في عينيه: شكراً.

واستمر تريفيل في حديثه للملك: وعلى ما يبدو، فقد ذهب أتوس ليزور أحد أصدقائه شاب جاسكوني في خدمة حرس جلالتكم تحت قيادة "م دي ايزارت" وكان الشاب غائباً في ذلك الوقت، فصمم أتوس على انتظاره، وما أن جلس وأخذ أحد الكتب حتى فتح الباب بالقوة واندفع بعض رجال البوليس.

فأشار الكاردينال إلى الملك إشارة كأنها تقول هذه هي المسألة التي كنت أحدثك فيها الآن.

فقال الملك: نحن نعرف ذلك مادام في خدمتي.

فقال تريفيل وقد كان في خدمة جلالتكم أيضاً عندما قبض على أحد فرساني أو بمعنى أصح أحد فرسانك وسيق عبر الطرق، وكانت إهانة علنية للحلة التي يرتديها هذا الرجل الباسل المخلص الذي سكب دمه في خدمة جلالتكم عشرة مرات وعلى استعداد لفعل ذلك مرة أخرى.

ويبدو أن الملك ابتدأ يتأثر فالتفت إلى الكاردينال.

فقال: أهذه كيفية. ترتيبك للأمور؟.

فقال الكاردينال الذي كان يشعر بسلام موقفه: يا صاحب الجلالة: م دي تريفيل لم يذكر أن هذا الفارس البريء، ذلك السيد صاحب الأخلاق غير المشكوك فيها قد هاجم بسيفه قبل ذلك بساعة واحدة أربعة من رجال بوليس الذين كان لديهم أمر ببحث أحد الأمور البالغة الأهمية.

فقال تريفيل بصراحته الجاسكونية: إني أتحدى صاحب الفخامة أن يثبت ذلك فأنا أخبر جلالتكم أن م أتوس رجل نبيل الأصل، وكان يشرفني بالأمس بتناوله العشاء معي، وبعد العشاء أي حوالي ساعة قبل الهجوم المزعوم على رجال البوليس الشجعان كان م أتوس يتحدث مع ضيوفي الآخرين ومن بينهم الكونت دي شالي ودوق دي لاترموال ورجال محترمين معروفين لجلالتكم.

فنظر الملك إلى الكاردينال كمن ينتظر تفسيراً.

فقال الكاردينال مجيباً على نظرة استفهام الملك: إني تلقيت تقارير مكتوبة فيما يتعلق بهذا الشأن كما أن– واستمر في كلامه وهو يخرج من جيبه ورقة مطوية– رجال البوليس قد عوملوا بقسوة وقدموا شكوى خاصة، لي الشرف أن أرفعها الآن لجلالتكم.

فتساءل م دي تريفيل بحدة: هل تقارن كلمة رجل البوليس المدني المكتوبة بكلمة شرف قائد في فرسان الملك؟

تعال، تعال يا تريفيل إمسك لسانك الجاسكوني. قال الملك ولو أنه ابتدأ يشك أن الكاردينال قد وقع في إحدى ألاعيبه ومكائده.

فقال تريفيل: إذا كان لصاحب الفخامة أية شكوك فيما يتعلق بأحد فرساني فأطلب التحقيق.

فقال الكاردينال– وكأنه لم يسمع كلام تريفيل المليء بالغضب– إني لدي الحق في أن اعتقد أن أحد الشبان الجاسكونيين وصديق لهذا الفارس يقطن في المنزل حيث تم الاعتقال.

هل تقصد م دارتنيان يا صاحب الفخامة؟

إني أقصد شاباً هو في حمايتك يا م تريفيل.

نعم يا صاحب الفخامة هو كذلك.

ألا تعتقد أن هذا الشاب قد أعطى نصيحة سيئة...

فقاطعه تريفيل بحدة: إلى م أتوس الرجل الذي يكبره في السن؟ ومن ناحية أخرى فقد أمضى م دارتنيان بعض من المساء عندي.

فقال الكاردينال هم! إنه يبدو أن نصف باريس قضت المساء عندك!

فقال تريفيل رافعاً صوته، وقد اصطبغ وجهه بالغضب: هل تشك فخامتكم في كلامي؟

فأجاب الكاردينال بهدوء بحق السماء لا، على كل حال أريد أن أعرف في أي وقت كان عندك؟

فيما يتعلق بذلك فأنا أؤكد لك يا صاحب الفخامة أنها كانت التاسعة والنصف عندما حضر عندي ليراني، ولو أنه كان عندي الإحساس بأن الوقت بعد ذلك.

– وفي أي وقت غادر منزلك؟

– في الساعة العاشرة، أي بعد ساعة من الحادث.

فلم يستطع الكاردينال أن يشك في صدق وولاء م دي تريفيل، وشعر أن انتصاره ابتدأ في الزوال.

وبعد لحظة تفكير قال: على أي حال لا تستطيع أن تنكر حقيقة أن أتوس اعتقل في هذا المنزل.

هل هو ممنوع على صديق أن يزور آخر، أو على فارس من فرقتي أن يتصادق مع رجل من الحراس يتبع فرقة م دي إيزارت؟

تماماً إذا كان المنزل الذي يزوره موضع شبهة.

فأضاف الملك:– ربما لم تعلم يا تريفيل أن المنزل كان موضع شبهة.

في الواقع يا صاحب الجلالة لم أكن أعلم، ربما كان المنزل موضع شبهة، ولكني أنكر أن يكون في الجزء المقطون بـ م دارتنيان، أني أؤكد لكم يا مولاي أن دارتنيان شديد الإخلاص والولاء لجلالتكم.

فتساءل الملك: دعني أفكر، أليس هو ذلك الشاب الذي جرح جوساك في أحد الأيام في الاجتماع التعس بالقرب من دير ديشو؟ قال ذلك وهو يلتفت للكاردينال الذي احمر وجهه من الغضب.

وأكمل م دي تريفيل: وجعل برناجو عاجزاً في اليوم الثاني، نعم يا مولاي نعم إنه هو نفس الشخص، إن لمولاي ذاكرة جيدة.

فقال الملك للكاردينال: فكر في الأمر ماذا تقرر؟

فأجاب الكاردينال: هذا يخص جلالتكم أكثر مني، فأنا أقرر إنه مذنب.

فقال تريفيل: أنا أرفض ذلك على أي حال، فإن لدى صاحب الجلالة قضاة وسوف يقرر هؤلاء القضاة بعد تحقيق عمومي.

فقال الملك– متحاشياً أن يصدر قراراً شخصياً– نعم نعم إن هذا أفضل شيء، أرسل القضية أمام القضاة إن عملهم هو الحكم.

فأضاف تريفيل: إلا أنه من المحزن حقاً أن في هذه الأوقات المضطربة لا يستطيع شخص ثابت صدقه وولاؤه الهرب من الظلم، وسوف أتكلم عن الجيش فأؤكد لكم يا مولاي أن ذلك يسبب امتعاضاً غير قليل لإهانته هذه بواسطة رجال البوليس المدني. وقد كانت هذه العبارات في غاية الوقاحة، ولكن م دي تريفيل قالها وهو واثق تماماً من صدق ما سوف يحدث فقد كان هدفه أن يحدث انفجار، إذ في حرارة هذه اللحظات تقال بعض الكلمات مما يكشف عن النوايا المستترة.

فصاح الملك: البوليس المدني! أن هذا ليس من شأنك يا سيدي. التفت إلى فرسانك ولا تزعجني بهذه الطريقة، يبدو من طريقة كلامك أن فرنسا في خطر إذا اعتقل أحد فرسانك، كل هذه الضجة من أجل فارس! إني أعتقل عشرة منهم أو مائة أو حتى فرقة كاملة ولا أسمح لهم أن يهمسوا بشكوى.

فقال تريفيل رافعاً صوته: في اللحظة التي تشكون جلالتكم من الفرسان فإنهم مذنبون، وبالتالي يا مولاي إني مستعد لأن أسلم سيفي الآن وهنا، مادام أن صاحب الفخامة لن يقنع إلا بعد أن يتهمني، بعد أن اتهم جنودي. ولذلك فأنا أطلب اعتباري كسجين مع أتوس الذي اعتقل ومع دارتنيان الذي سيتبعه بدون شك.

فقال الملك: لا تفعل أيها الجاسكوني! وهو لا يستطيع أن يفكر في شيء آخر يقوله.

فأجاب تريفيل بدون أن يخفض صوته: مولاي "هل سيطلق سراح فارس أم يحاكم أمام محكمة عمومية"؟.

فقال الكاردينال: "يحاكم إنه..."؟

فقاطعه تريفيل بخشونة: "حسناً جداً إن ذلك سيكون أحسن بكثير في هذه الحالة، سأطلب أن أدافع عنه في المحكمة"!.

فابتدأ الملك ينزعج حقيقة.

فقال: إذا لم يكن لدي صاحب الفخامة أسباب شخصية...

ففهم الكاردينال أن الملك سوف يطلق العصفور من قفصه.

فقال مقاطعاً الملك– لأجل أن يغير وجهة النظر– أرجو المعذرة يا مولاي في اللحظة الذي تعتبوني جلالتكم قاضياً متحيزاً فإني أنسحب من المسألة.

ففهم الملك وقال: فكر يا تريفيل هل تقسم بأبي أن آتوس كان في منزلك، ولم يشترك في هذا الحادث المزعج؟

إني أقسم بأبيك المعظم الذي كان لي شرف خدمته، وأقسم بك أنت الذي أجلك وأخدمك بنفس الولاء.

فقال الكاردينال: إني أرجوك يا مولاي أن تفكر في قرارك جيداً، إذ لو أفرجنا عن السجين بهذه الطريقة فلن تكشف الحقيقة.

فقال تريفيل: إن أتوس سيظل هنا دائماً على أتم استعداد لإجابة البوليس الخاص عندما يريد التحقيق معه، وليس الهرب من عادته، ومع ذلك فإني أضمنه.

فقال: هذا صحيح يمكننا أن نجده دائماً.

فأضاف الكاردينال: "إعط ما تشاء من الأوامر يا مولاي، فأنت وحدك الذي تملك حق العفو".

فقال تريفيل بحدة ومتشبثاً بأن تكون له الكلمة الأخيرة: لا يعفي إلا عن المجرمين ولكن أتوس بريء وإني أشهد بذلك وعلى ذلك فليس فضلا وذلك الذين تمنحه يا مولاي بل عدالة.

فقال الكاردينال: أقترح أن توقع أمر الإفراج عنه يا مولاي فإني أشارك جلالتكم الاعتقاد في كفاية ضمان م دي تريفيل.

فانحنى تريفيل للكاردينال باحترام وبفرح يمازجه الخوف ولو أنه كان يفضل أن يكون موقف الكاردينال عنيداً بدلا من هذا الخضوع المفاجئ.

ووقع الملك أمر الإفراج عن أتوس وأعطاه لـ م دي تريفيل الذي انحنى وطلب الإذن بالخروج وعند خروجه ابتسم له الكاردينال ابتسامة صديق فجعل تريفيل يفكر "سوف يستعيد مركزه سريعاً إذ لا يستطيع الإنسان أن تكون له الكلمة الأخيرة مع ذلك الشخص ولذلك يجب أن أسرع قبل أن يغير الملك رأيه في أي لحظة إذ الاحتفاظ بشخص مسجون في فورت ليفيك أسهل من إرجاعه ثانية إليه بعد خروجه منه".

ودخل م دي تريفيل السجن مزهواً بالنصر وحصل على الإفراج عن فارسه وحيا أتوس قائده كأنما لم يحدث شيء غير عادي فقد ظل على هدوئه وعدم اهتمامه بالأمر كلية مما ضايق ضباط السجن وحراسه.

ودعا م دي تريفيل دارتنيان إلى مكتبه في اليوم التالي.

وقال له أيها الشاب لقد نجوت بنفسك بنجاح حتى هذا الوقت وهذا ثمن طعنة جوساك وتظل طعنة برناجو منتظرة وعلى ذلك لا تغالي في ثقتك بل على العكس شك في كل شخص فإذا حاول شخص أن يتعارك معك فحاول بكل إمكان ألا تعاركه. وإذا هاجمك أحد بالليل أو النهار فحاربه إذا وجدت أن الطرفين متعادلان ولكن إذا لم يكونا كذلك فاهرب ولا عار. وإذا مررت بجانب منزل يبنى أو فيه تصليح فانظر لأعلى حتى لا يصيبك حجر وإذا بقيت في الخارج ليلا فاجعل تابعك وراءك ومسلحاً دائماً.

ترتيبات الحفلة المميتة

وبعد ثمانية أيام استلم الكاردينال رسالة فيما يلي مضمونها:

إني حصلت عليهم ولكني لا أستطيع مغادرة لندن لأنه ليس معي نقود.

أرسل لي خمسمائة بستولات، وسأكون في باريس بعد أربعة أيام من استلامي لها ولم يكن هناك تحية أو توقيع.

وفي ذلك المساء أثناء كان الملك يلاعب الكاردينال الشطرنج، حاول الكاردينال أن يجعل الملك مسروراً، وذكر في الوقت المناسب أن الاستعدادات في المدينة لأول حفلة في الموسم قد قامت، وذكر الملك أن العادة جرت على أن أصحاب الجلالة يحضرونها في أبهى حللهم ويفتتحون الرقص.

فقال الملك: "ولكن يا عزيزي الكاردينال إنك تعلم كم لا أحب هذه المسرات الدنيوية" ولم يتبين أن هذه الحفلة سوف تقام في وقت مبكر عن العادة. فأضاف الكاردينال بخبث "حينئذ سوف تكون الملكة من الشاكرين لك يا مولاي، إذ تعلم أن الملكة تحب الرقص، ومن ناحية أخرى سوف تكون لديها الفرصة لكي تلبس جلالتها حليتها الماسية التي

أهديتها إياها في عيد ميلادها إذ لم يكن لديها الفرصة حتى الآن لكي تلبسها.

– متى تقام هذه الحفلة؟

وظل الكاردينال صامتا لحظة يفكر ويقول في نفسه: "سوف تأخذ النقود حوالي من أربعة أو خمسة أيام حتى تصل إلى "ميلادي" التي ستأخذ مثلها في الرجوع إلى هنا، إذن فهناك عشرة أيام، وبإضافة يومين لتفادي ما يمكن أن يقع من مضايقات أو حوادث فذلك يجعلها اثني عشر يوماً.

فقال الملك: "حسناً يا سيدي، هل انتهيت من عملياتك الحسابية"؟

– نعم يا مولاي اليوم في العشرون من سبتمبر، وكل شيء سوف يكون معداً بعد اثني عشر يوماً، وعلى ذلك فسوف تقام الحفلة في الثالث من أكتوبر.

فقال الملك: "حسناً يا عزيزي الكاردينال، سوف أخبر الملكة غداً صباحاً. وبعد نصف ساعة وقف الكاردينال وطلب الإذن بالخروج عندما رأى أن الملك أصبح غير مهتم باللعبة، وعندما كان على وشك الخروج من الغرفة قال: "مولاي هل لي أن أذكر جلالتكم أن كل باريس سوف تتطلع إلى الملكة لترى ما ساتها"؟.

فلاحظ لويس الثالث عشر أن الكاردينال قد كرر ذكر الماسات مرتين في نفس المساء. ولم يمكنه أن يفهم، ولذلك فقد أخذ الأمر على أن الكاردينال لديه أسباب خاصة أو يخفى مفاجأة. على أي حال ذهب في الصباح التالي إلى الملكة وأخبرها بكل شيء عن الحفلة.

وقال: "ومن أجل أن تكرم الحفلة يا سيدتي فسوف ترتدين أحسن حلل الحفلات وأظن أنها ستكون فرصة لكي تلبسين هدية عيد ميلادك الحلية الماسية.

فوجلت الملكة وانعقد لسانها ووقفت صامتة وقلبها مضطرب من الخوف وظلت ناظرة للملك.

فسألها بجفاء: "هل سمعتيني يا سيدتي؟ إذ بدى أن سكوتها كان عنوان عدم

- فأجابت في صوت ضعيف: "نعم يا مولاي نعم متى ستقام الحفلة؟ وهي تشعر أنه لابد من بعض القول".

- فأجاب قريباً جداً يا سيدتي. لست متأكداً من التاريخ، وسوف أسأل الكاردينال. فسألت الملكة فجأة: "إذن فقد كان الكاردينال هو الذي رتب أمر هذه الحفلة"؟

فأجاب الملك في بعض الدهشة لاهتمام الملكة الفجائي: "نعم يا سيدتي، ولكن لماذا تسألين"؟

- وهل كان هو أيضاً الذي اقترح ارتدائي للماسات؟

- "لنفرض أنه فعل ذلك يا سيدتي هل هناك أي شيء غريب في ذلك"؟

- "لا يا مولاي".

- فقال الملك وهو على وشك الخروج. "إذن سوف تحضرين الحفلة مرتدية حليتك".

نعم يا مولاي. وحيته الملكة بثني ركبتيها لا لتظهر تكريمها العظيم للملك بل لأن قواها كانت تخور.

آن ملكة فرنسا

وركعت الملكة على ركبتيها ودفنت وجهها في راحتيها.

وجعلت تئن لقد ضعت، ضعت فإن الكاردينال يعرف كل شيء والملك الذي لا يعرف شيئاً، وسوف يعرف حالا، آه يا إلهي لقد ضعت يا ربي ضعت.

وفي الحقيقة كان مركزها حرجاً. إذ كان بكنجهام في انجلترا والدوقة دي شيفرس صديقتها الحقيقية الوحيدة كانت في تور يركبها العار.. ولم تكن الملكة تستطيع أن تنق في أي شخص، إذ كانت محاطة بجواسيس الكاردينال، ولم يكن لا بورت يستطيع أن يترك اللوفر أكثر من يوم واحد حتى يثير الأسئلة حوله. فانخرطت في البكاء حين لم تعد تتحكم في ضبط عواطفها نظراً لتعاستها.

فقال صوت هادئ جميل: هل يمكنني تأدية خدمة لجلالتك؟

فالتفتت الملكة بحدة وقد صدرت عنها صرخة خافتة من الدهشة. على أي حال لم يكن هناك أي شك في أن الصوت صوت صديق.

وقد وقفت مدام بوناسيو عند باب يؤدي إلى حجرة ملابس الملكة. وكانت منهمكة في ترتيب الملابس والمفروشات عندما حضر

الملك. ولما لم يكن في استطاعتها أن تغادر الحجرة الجانبية، فقد سمعت كل ما دار بين الملك والملكة.

ومن أول نظرة لم تستطع الملكة أن تتعرف على السيدة الشابة التي التحقت بخدمتها بواسطة لابورت المخلص.

فقالت السيدة الشابة والدموع في عينيها: لا تخافي يا صاحبة الجلالة إني كونستانس بوناسيو، إني ملك جلالتك جسماً وروحاً. ومهما أكون صغيرة المركز في خدمتك، ولكني اعتقد أني أعرف طريقة لتجنب متاعب جلالتك! "فشهقت الملكة" أأنت! انظري إلى جيداً إن جميع من يحيطون بي يخونني فهل استطيع أن أثق فيك"؟

فأجابت السيدة الشابة وهي تركع على ركبتيها أمام الملكة: "أوه يا سيدتي! أقسم بنفسي إني مستعدة لأن أبذل حياتي فداك".

ولم يكن هناك محل للشك في صدق قولها نظراً لصدور الكلمات من أعماق قلبها ونبرة صوتها.

واستمرت في كلامها "نعم نعم هناك خائنون في كل مكان، ولكن أقسم لك أنه ليس هناك من هو أخلص لجلالتك مني. إنك أعطيت الماسات لدوق بكنجهام في الكيس الصغير الذي حمله معه عندما غادرت به اللوفر أليس هذا صحيحاً يا سيدتي"؟

فتمتمت الملكة التعسة وأسنانها تصطك من الخوف "أوه يا إلهي" إن استرجاعها هو الشيء الواجب عمله الآن يا صاحبة الجلالة.

فصاحت الملكة "نعم. نعم، ولكن كيف؟ كيف يتم ذلك؟

– لابد من إرسال شخص إلى الدوق في الحال.

– ولكن من؟ من يمكننا الوثوق فيه؟

– ضعي ثقتك في أنا يا مليكتي، وامنحيني هذا الشرف وسأجد الرسول ولكن يجب أن اكتب مذكرة.

نعم هذا ضروري. فإن كلمات قليلة بخط يدك ممهورة بخاتمك فيها الكفاية.

ولكن هذه الكلمات القليلة سوف تقضي علي، وتجلب تدميري وطلاقي ونفيي.

– نعم هذا إذا وقع في أيد شريرة، ولكن أضمن أن هذه الكلمات الصغيرة سوف تسلم إلى العنوان الصحيح.

– فقالت الملكة برجاء: "ولكن كيف؟ أخبرني كيف"؟

– إن زوجي غني وأمين، وسوف يفعل كل شيء أطلبه منه، إنه يرحل على انجلترا عند طلبي منه ذلك بدون أن يعرف ما في الرسالة أو من

كتبها، وسوف يسلمها إلى العنوان المكتوب على المظروف، ويأتيني بأي شيء يسلم إليه في انجلترا.

فأمسكت الملكة مدام بوناسيو بيديها وجعلت تحدق في عينيها كأنما تحاول أن تقرأ أعماقهما، ولما لم تر إلا الإخلاص والدموع التي تملؤها، أخذتها في ذراعيها وضمتها إليها بحنان بعض الوقت.

وقالت الملكة: إذا استطعت أن تفعلي ذلك فإنك لن تنقذي شرفي فقط بل حياتي أيضاً:

– إذن أعطيني الخطاب يا صاحبة الجلالة فإن الوقت يضغط علينا.

فجرت الملكة إلى مائدة صغيرة جانبية، وكتبت رسالة قصيرة بسرعة، وقالت وهي تقفل الظرف: "إنك تنسين أمراً واحداً في غاية الأهمية"؟.

فسألت كونستانس بشيء من الدهشة: "ما هذا يا سيدتي"؟.

– "والمال".

فقالت ووجهها يحمر من الخجل: "نعم إن هذا صحيح يا صاحبة الجلالة، ويجب أن اعترف أن زوجي...

– لا يملك شيئاً: "أهذا ما كنت تنوين أن تقوليه"؟

– إنه يملك المال، ولكنه في غاية البخل على أي حال سوف أؤثر عليه بسهولة يا صاحبة الجلالة.

فقالت الملكة بحزن "إني لا أملك مالا، ولكن هذا قرط ذو قيمة أعطانيه أخي ملك إسبانيا، إنه ملكي، ولذلك فأنا حرة أفعل به ما أشاء، خذيه وبيعيه واجعلي زوجك يستعمل ثمنه في مصاريفه".

– سوف أسرع إليه يا صاحبة الجلالة.

فقالت الملكة في صوت منخفض حتى أن كونستانس لم تسمع ما قالته إلا بصعوبة: "إنك ترين العنوان على الظرف".

إلى دوق بكنجهام "لندن"

فقبلت كونستانس يدا الملكة. وأخفت الخطاب في ملابسها وأسرعت خارجة.

مسيو بوناسيو في منزله

ووصلت مدام بوناسيو إلى منزلها في نصف ساعة، ولما لم نكن قد رأته منذ أن أفرج عنه من الباستيل. فلم تكن تعرف ما طرأ عليه من تغيير فيما يتعلق بالكاردينال، ولقد زادت زيارات كونت دي روشفورت من قوة هذا التطور ولقد أقنع الكونت بوناسيو أن زوجته اختطفت لحمايتها لا ليصيبها ضرر.

ووجدت مدام بوناسيو زوجها يقوم بمحاولات ناجحة لإعادة ترتيب المنزل وكان معظم الأثاث قد تكسر والدواليب في غير نظام. أما الخادمة فقد هربت لخوفها ساعة اعتقال سيدها ولم ترجع بعد.

وقد أظهر بوناسيو فرحاً عظيماً لرؤية زوجته، واستقبلها وذراعاه مفتوحتان ومع ذلك فقد بدى أنها تفكر تفكيراً عميقاً، وجعلا يتكلمان مدة عن كيفية خطفها وعن الوقت العصيب الذي قضاه في الباستيل ثم قالت له: إنها تعرف طريقة لربح المال، وذلك لتسترعي انتباهه وما كان عليه إلا ليتتبع تعليماتها. وقد ظنت أنها بالكلام مع زوجها عن المال يمكنها أن تغريه بسهولة على الذهاب إلى لندن، ولكن الرجل الذي تكلم عشر دقائق مع الكاردينال لم يعد نفس الرجل.

فصاح بوناسيو وهو يفرك يديه: مال كثيركم؟

– ألف بستولات أو ربما أكثر.

– "ما يجب أن أفعله لأحصل على كل هذا المال؟ لابد أن الأمر في غاية الأهمية.

– لابد أن تذهب فوراً برسالة إلى لندن ويجب ألا تفقد هذه الرسالة، ويجب أن تسلمها إلى الشخص المكتوب اسمه على الظرف".

– لندن؟ ليس لي أعمال في لندن!!

– "استمع: أن شخصاً بارزاً يرسلك وينتظرك شخص بارز. وإني أعدك أن تكون الجائزة أكبر كثيراً مما تتوقع".

– مؤامرات! مؤامرات أكثر! لا شيء إلا المؤامرات. شكراً لك يا كونستانس فإن الكاردينال قد نبهني إلى حقيقة الأمور.

فصرخت زوجته من الدهشة: "الكاردينال!. هل قابلت الكاردينال"؟

– فأجاب م بوناسيو: "نعم إنه أرسل إلي يستدعيني، وقد لمسني على كتفي وناداني عزيزي بوناسيو هل تسمعين يا كونستانس إني صديق الكاردينال العظيم"؟.

- فقالت آه إذن أنت من أنصار الكاردينال وتخدم هؤلاء الذين أساءوا معاملة زوجتك ويتآمرون ضد الملكة!.

- فقال بوناسيو مكرراً إحدى تعبيرات روشفورت التي تذكرها: "يا كونستانس لا يجب أن تقدم المصالح الشخصية على مصالح الدولة".

- فسألته زوجته: "ماذا تعرف أنت عن الدولة؟ كن قانعاً بأنك رجل عادي وانضم إلى الفريق الذي تستفيد منه فائدة أكبر".

- فسألها وهو يخرج من الدولاب كيس النقود الذي أعطاه إياه الكاردينال "أوه فائدة أكبر ماذا تقولين في ذلك؟ إن هذا هدية من الكاردينال والكونت دي روشفورت، وأضاف اسم الكونت ليؤثر على زوجته.

فصاحت: "ماذا؟ تقبل ما لا من ذلك الرجل؟ الرجل الذي خطفني ليرغمني على خيانة سيدتي ليحطم شرفها وحياتها نفسها".

- فأجاب بوناسيو مستعملاً تعبيراً آخر: لروشفورت "كونستانس إن سيدتك ما هي إلا إسبانية مكروهة وما يفعله الكاردينال هو لصالح الدولة".

فضربت مدام بوناسيو الأرض بقدمها من الضجر. وقالت: حسناً إذا لم تذهب وتكون مستعداً للذهاب إلى لندن فسأجلهم يعتقلونك بأمر الملكة، وحينئذ سوف ترجع إلى الباستيل الذي ترهبه".

ولم يكن بوناسيو قد رأى زوجته في مثل غضبها هذا فلم يجيبها لدقيقة أو اثنتين لانشغاله في تفكيره. فقد كان يوازن بين غضب الملكة وغضب الكاردينال وتفوق غضب الكاردينال بسهولة.

- فصاح: "اجعلي الملكة تعتقلني وسوف أرفع الأمر لصاحب الفخامة".

وفي الحال رأت كونستانس أنها ذهبت بعيداً وأصبحت الآن خائفة من أن تكون قد قالت لزوجها الأحمق الشيء الكثير.

- فقالت في منتهى الرقة: "أوه لا تهتم، ربما كنت محقاً في عدم ذهابك، ودعنا لا نطرق هذا الموضوع بعد الآن".

- فقال بوناسيو بخبث متذكراً بعد فوات الوقت ما قاله كونت دي روشفورت عن ضرورة كشف أسرار زوجته وما تعمله في القصر "على الأقل يجب أن تخبريني ما كنت سأعمله في لندن".

- فأجابت كونستانس- وقد نبهها هذا النفور المفاجئ من زوجها على ألا تقول له شيئاً- "في الحقيقة ليس هناك ما يجب أن تعرفه، إنها كانت تتعلق بمشتريات تهم النساء وحدهم، مشتريات ربما أدت إلى أرباح وفيرة".

- وكانت كلما حاولت زوجته تجنب إعطاء تفاصيل أخرى كلما ظن بوناسيو أن السر في غاية الأهمية. وعلى ذلك قرر أن يسرع على روشفورت ويخبره أن الملكة في حاجة إلى شخص ترسله في مهمة إلى لندن.

- فقال: "يجب أن أتركك الآن لوقت قصير إذ لدي ميعاد مع صديق وسأعود حالا". وقبل زوجته ورحل بسرعة.

- وما كاد الباب يقفل خلف بوناسيو حتى كانت طرقة على السقف جعلت مدام بوناسيو تلتفت إلى أعلى ثم سمعت صوتاً.

- فقال الصوت خلال السقف: "مدام بوناسيو إني دارتنيان افتحي الباب الجانبي وأنا أنزل لك".

فقال دارتنيان عندما دخل من الباب الجانبي أنه يبدو لي يا سيدتي أن زوجك في منتهى الجبن.

- فقالت في صوت مضطرب: "لماذا تقول ذلك؟ هل سمعتنا ونحن نتكلم"؟

- "نعم كل كلمة".

- "ربما، ولكن ماذا فهمت؟"

– "ألف شيء: أولا زوجك غبي. ثانياً" إنك في مأزق. وأخيراً إن الملكة في حاجة إلى رجل شجاع نبيه ومخلص ليسافر لها إلى لندن، وبما أنه لدى صفتان من هذه الصفات فأنا هنا في خدمتك".

– وظلت مدام بوناسيو لا تجيب لحظة وقلبها ينبض بالاطمئنان والأمل الخفي.

– فقال دارتنيان ملاحظاً ترددها: "ربما تريدين شخصاً يضمني، هل تعرفين أتوس. بورتوس أو أراميس؟".

– لا من هؤلاء الرجال؟.

– "ثلاثة من حرس الملك، هل تعرفين م دي تريفيل قائدهم"؟.

– "ليس شخصياً، ولكني سمعت صاحبة الجلالة تذكره مراراً كرجل شجاع ومخلص".

– "إذن أذكري له سرك، واسأليه إذا كنت تثقي فيَّ في هذه المهمة أم لا".

– ولكن السر ليس ملكي فلا يمكنني أن أبوح به بهذه الطريقة.

– فقال دارتنيان وهو شاعر بالضيق: "إنك كنت على وشك البوح به لزوجك، لماذا لا تحاولي معي؟. إن الوقت يمر".

ومع ذلك كان من الصعب على مدام بوناسيو أن تقرر رأياً قاطعاً، إذ كانت في مأزق لابد من المخاطرة بكل شيء لكسب كل شيء، إذ من الممكن أن تضر الملكة من ثقة قليلة أو ثقة كثيرة. ومن ناحية أخرى فقد كان عندها الدليل على شجاعته وفروسيته.

– فقالت استمع: هل تقسم ألا تخونني أو تخون سيدتي؟

– فقال دارتنيان: أقسم لك أمام الله يا سيدتي. أقسم على أني إذا هوجمت وأنا أقوم بهذه المهمة فسوف أموت قبل أن أفعل أو أقول أي شيء أخون به أي شخص.

– فأخبرت مدام بوناسيو دارتنيال بالسر الرهيب الذي علم بجزء منه على الجسر في منتصف الليل وهو لا يدري.

– لن أضيع أي وقت سأذهب في الحال وأحصل على أجازة من فرقتي قدرها خمسة عشر يوماً.

– فقالت كونستانس بابتسامة لطيفة وهي تضع يدها على ذراعه: "هناك شيء يبدو أنك نسيته"؟.

– فقال دارتنيان وهو في منتصف الطريق إلى الباب. "وما هذا؟".

– "ربما كنت في حاجة إلى المال لأجل الرحلة"؟.

- **فأجابها بابتسامة: "ربما هي الكلمة الصحيحة"؟.**

- **فقالت كونستانس وهي تأخذ كيس النقود الذي أراها إياه زوجها بفخر من الدولاب" لماذا لا نأخذ هذا؟".**

- **فصاح دارتنيال وهو يضحك: "مال الكاردينال! إذن فسوف ننقذ الملكة بمال الكاردينال".**

- **وعندما رجل دارتنيان تبعته كونستانس بعينيها المليئتين بالدموع، حتى اختفى وراء ناصية الشارع، وهمست بصلاة من قلبها. يا ربي احمي الملكة واحمه واحمني؟.**

الفرسان الثلاثة في أجازة غير متوقعة

ولو أن دارتنيان لم يكن فارساً إلا أن م دي تريفيل كان يعامله دائما كفارس وكان دارتنيان يعلم أن م دي تريفيل قائد الفرسان في غاية الإخلاص للملك والملكة، وكان يكره الكاردينال، فقرر أن يذهب إليه ليساعده ويرشده وليخبره بكل شيء إذا لزم الأمر.

فقال دارتنيان بعد أن حكى قصته: "ومن هذا ترى يا سيدي إني لا استطيع أن أعمل أي شيء بدون مساعدتك".

- "وماذا يمكن أن أعمله لك"؟.

- أرجوك أن تقابل م دي ايزارت وتحصل لي منه على أجازة قدرها خمسة عشر يوماً، لأني أريد أن أرحل إلى لندن هذا المساء يا سيدي.

- "هل ستذهب وحدك؟".

"نعم يا سيدي".

- وعلى ذلك فلن تذهب بعيداً قبل أن يعتقلك رجال الكاردينال أو يوقفونك بأي طريقة مزعجة.

- "على الأقل سأموت وأنا أؤدي واجبي".

- "من المحتمل ولكن مهمتك لن تتم. صدقني في مثل هذه المهمات لابد أن يسافر أربعة من أجل أن يصل أحدهم. هل يمكنك أن تثق في أصدقائك الثلاثة أتووس وبورتوس وأراميس بسرك؟".

- "نعم يا سيدي، لقد أقسمنا على ولاء لا ينفصم لكل منا ضد أي شيء".

- "حسناً سأمنح كل منهم أجازة قدرها خمسة عشر يوماً، ولأرضى جواسيس الكاردينال، سوف أعطي أسباباً معقولة. فسوف أكتب لأتوس إنه يجب أن يذهب إلى الريف لأن جرحه لا يزال يتعبه. أما بورتوس وأراميس فسوف أقول إنهم قلقان على صحة صديقهم ويصران على مرافقته ومنحي إياهم أجازة سوف تكون برهاناً على سماحي لهم بمرافقتك".

- "شكراً يا سيدي".

- "والآن قبل أن تذهب أكتب طلباً بالأجازة لـ م دي إيسارت، فربما كان هناك جاسوس في أعقابك، وعلى ذلك تبدو زيارتك عادية عندما يبلغونها للكاردينال". وفعل دارتنيان كما طلب منه. ووعده م دي تريفيل أن أصدقائه سوف يحصلون على أجازاتهم قبل الساعة الثانية في الصباح.

- "هل يتكرم سيدي ويرسل تصريح أجازتي إلى أتوس؟ لأني أشك في أنه من التهور أن أذهب إلى منزلي في هذا المساء".

- فقال م دي تريفيل لدارتنيان وهو على وشك الذهاب: "مال؟".

- فربت دارتنيان على كيس النقود في جيبه.

"كافي؟".

- "ثلثمائة بستولات يا سيدي".

- "حسناً هذا يكفيك لآخر الدنيا، والآن اذهب وحظ سعيد".

فحياه دارتنيان ولكن م دي تريفيل تقدم إلى الأمام وصافحه باليد.

وزار دراتنيان أراميس أولا نظراً لقرب مسكنه، وبعد أن ظل الصديقان يتحادثان بعض الوقت حضر رسول ومعه ظرف مختوم.

- فقال أراميس "إني أعجب ما هذا؟".

- فقال الرجل "تصريح أجازتك يا سيدي".

- أجازتي! أنا...؟.

- فقاطعه دارتنيان: "لا تسأل عن شيء خذها".

- فقال أراميس عندما ذهب الرسول: "ماذا يعني هذا؟".

- "إنه يعني أن تحزم بعض الأشياء التي تكفي أسبوعين سفر وتحضر معي".

- "أين؟".

- فقال دارتنيان وهو يبتسم: "لنرى أتوس الآن".

- "هل سنأخذ رجالنا معنا"؟.

- "ربما، على أي حال أجعل رجلك بازين يحضر حاجتك إلى منزل أتوس".

- ووجد الصديقان أتوس ممسكاً بتصريح إجازته في يد ومذكرة م دي ترتفيل في الأخرى فصاح: "هل تستطيع أن تفسر ذلك؟ اسمع لهذا".

عزيزي أتوس: لما كانت جروحك لا تزال تؤلمك فأظن أنه من المستحسن أن تأخذ أجازة لمدة خمسة عشر يوماً.

اذهب وتناول مياه فورج المعدنية أو أي نوع آخر تفضله" وارجع إلينا سريعاً في حال أحسن.

المخلص: تريفيل

فقال دارتنيان: "إنها تعني ببساطة أن تأتي معي".

– إلى فورج"؟.

– هناك أو مكان آخر كما تقول المذكرة".

– "آه فهمت. في خدمة الملك".

– "الملك أو الملكة؟ ألسنا في خدمة صاحبي الجلالة"؟.

ووصل بورتوس في هذه اللحظة. وقال بصوته الهدار: "يا للمساء! إني أعجب منذ متى يأخذ الفرسان أجازات لا يطلبونها!".

– فقال دارتنيان: "منذ أن كان لديهم أصدقاء يحصلون لهم عليها".

– فقال بورتوس: "أها! إنه يبدو لي أن هناك شيئاً جديداً يحدث".

– فقال دارتنيان الذي قرر أن الوقت قد حان لتفسير كل شيء. "إننا ذاهبون إلى لندن أيها السادة".

– فقال بورتوس: "هذا حسن جداً لأجل أن تذهب إلى لندن لابد أن يكون معنا مال وأنا لا أملك شيئا".

– فقال أتوس وأراميس في صوت واحد: "ولا أنا".

- فقال دارتنيان وهو يخرج كيس النقود من جيبه: "لا تفلفوا عندي الكثير، هنا ثلثمائة بستولات كل منا يأخذ خمسة وسبعين، وهذا كاف للذهاب إلى لندن والرجوع منها، ومن ناحية أخرى ربما لا نصل كلنا إلى لندن".

- لماذا؟

فقال دارتنيان: "لأنه من المحتمل أن يتخلف بعضنا في الطريق. والآن استمعوا لي إني أحمل خطاباً مغلقاً وهذا كل شيء. إنه في هذا الجيب الداخلي وهو يحمل عنوان دوق بكنجهام، لندن. فإذا بالمصادفة قتلت أو أصبت لابد أن يأخذه أحدكم ويستمر في طريقه. فإذا لم يستطع حامل الخطاب أن يستمر في طريقه فيجئ الدور على التالي، وهكذا بحيث أن يوصله أحدنا. وهذا هو كل المطلوب"!.

- فقال الفرسان الثلاثة بدون تردد: "اتفقنا".

- وبعد مناقشة بعض الترتيبات استدعوا أتباعهم وأمروهم أن يعدوا خيولهم للرحيل بعد ساعة.

مفاجآت عديدة

وترك المغامرون الأربعة باريس يتبعهم رجالهم، وكان ذلك بعد الساعة الثانية صباحاً وكان كل شيء حسناً حتى وصلوا إلى شانتيلي. وترجلوا عن خيولهم عند أول خان قابلهم وقرروا أن يتناولوا فطورهم. وأمروا رجالهم ألا يضعوا الخيول في الإسطبل بل يسكنوها استعداداً للرحيل في الحال.

وجلس الأربعة على مائدة طويلة وطلبوا الطعام وزجاجتين من الخمر، وعلى المائدة كان يتناول الطعام رجل وصل قبلهم بوقت قصير وافتتح الحديث متكلماً عن الجو، ولكن الأصدقاء الأربعة أجابوا بأدب واستمروا في تناول إفطارهم وعندما استعدوا للرحيل أمسك الرجل بكأسه واقترح على بورتوس أن يشرب نخب صحة الكاردينال. فأجاب بورتوس إنه مستعد أن يفعل ذلك إذا وافق هو الآخر على شرب نخب صحة الملك. فصاح الغريب بغضب: إنه لا يعترف بأي ملك غير صاحب الفخامة. فلقبه بورتوس بالأحمق السكران، وقام ليرحل، ولكن الغريب جرد حسامه. فقال أراميس وهو في طريقه لدفع الحساب: "لا تضيع الوقت أقتل هذا الشخص أو اجعله عاجزاً عن الحركة والحق بنا بأسرع وقت يمكنك".

وجرى الثلاثة بخيولهم بينما كان بورتوس يتوعد الغريب أن يجعل في جسمه ثقوباً بجميع أنواع الطعنات المعروفة في عالم المبارزة.

فلاحظ أتوس بعد عدة دقائق: "ها هو أحدنا توقف".

فسأل أراميس "وإني أعجب لماذا تخير هذا الرجل بورتوس من بيننا".

- فقال دارتنيان: "كان بورتوس يتكلم كالعادة بصوت مرتفع فظنه الغريب أنه قائدنا، وإني لا أعتقد أن الرجل كان سكراناً".

- ووقفوا عند بيقاس ليريحوا خيولهم ولينتظروا بروتوس، ولكن لما لم تظهر له أي علامة بعد ساعتين استمروا في رحلتهم.

وبعد ثلاثة أميال تقريباً من بيقاس وصلوا إلى جمع من الرجال كان يظهر عليهم أنهم يردمون حفر الوحل بالتراب.

وكان الطريق الضيق يمر بين ضفتين مكسوتين بالعشب، فصاح أراميس في الرجال أن يفسحوا الطريق، ولكنهم بدلاً من أن يفعلوا ذلك جعلوا يلعنون المسافرين ويقذفونهم بكتل من التراب، وكان دارتنيان على وشك تجريد سيفه عندما جرى الرجال إلى العشب وأمسكوا بنادق من خلف العشب وصوبوها على الراكبين وابتدروهم بإطلاق النار على الراكبين وأصيب أراميس وتابعه لأنهما كانا يركبان في الجانب. فصاح دارتنيان هذا كمين! لا تقفوا للقتال. استمروا.

وعندما وصلت الجماعة إلى كريفيكير كان أراميس في غاية التعب لفقده الدماء بحيث لم يستطع أن يستمر في السفر، وكان جرح موسيكتون مؤلماً أكثر مما هو خطير، واستراحت الجماعة قليلا في خان، ثم أسرعوا في الرحيل ولديهم الأمل أن يصلوا إلى أميين قبل سدول الليل وتركوا اراميس في رعاية تابعه.

ووصلوا إلى أميين بسلام قبل منتصف الليل بقليل، وترجلوا عن خيولها عند الليل الذهبي واتخذ دارتنيان وأتوس احتياطاتهم بالرغم من أن صاحب الخان كان يبدو عليه أنه رجل أمين. وبعد العشاء أمروا جريجود تابع أتوس أن يذهب وينام في الإسطبل ويحرس الخيل، وقرر دارتنيان وأتوس أن يناما في حجرة واحدة، وأمرا بلانشت أن يحضر خشبة وينام في الحجرة معهم عبر الباب.

ومر الليل بهدوء حتى الساعة الثانية صباحاً حينما حاول أحدهم أن يفتح الباب. فاستيقظ بلانشت في لحظة وصاح: ماذا يجرى هناك؟ فقال هذا الشخص إنه مخطئ وذهب.

وبعد الرابعة بقليل صدرت أصوات عراك وصياح من الإسطبل. فعندما طلب جريمود من عمال الإسطبل أن يساعدوه في تحضير الخيل للركوب ضربوه بالعصى، ووجد بلانشت صديقه المسكين تدمى جراحه مغمياً عليه على أرض الإسطبل، والخيول كذلك كانت قد ضربت على

رؤوسها وعلى سيقانها بقسوة بحيث لم تكن صالحة للاستعمال في ذلك اليوم.

وكان هذا مقلقاً، فهل كل هذه الحوادث نتيجة للصدفة؟ أم إنها من المحتمل أن تكون نتيجة خطط مرتبة بعناية.

فقرر أتوس ودارتنيان أن الشيء الوحيد الممكن عمله هو محاولة استئجار خيول من المناطق المجاورة. وعند باب الخان وجدا حصانين قويين ومنتعشين وسرجهما مزود بمسدسات في جرابهما. وكان هذا هو المطلوب بالضبط، فقرروا أن يجدا الراكبين. وبدا أن الراكبين قد أمضوا الليلة في الخان، وكانا في هذه اللحظة في حجرة الطعام. وذهب أتوس ليدفع الحساب وبقى دارتنيان عند الباب منتظراً مجيء الرجلين في هذه الأثناء.

ووجد أتوس صاحب الخان في حجرة جانبية وأعطاه بستولين ليسدد الحساب، وأخذ صاحب الخان النقود وجعل يلقبها في يده لحظة، ثم صاح فجأة إن النقود رديئة وإنه سيقتل أتوس ورفيقه كمزورين.

فصاح أتوس: "أيها القذر سوف أقطع أذنيك".

واندفع في هذه اللحظة الرجلان اللذان كانا في غرفة الطعام داخلين الغرفة وكانا مسلحين تمام التسليح.

فصاح أتوس: إني مسكت يا دارتنيان خذ الخيل واذهب".

ولم يكن دارتنيان وبلانشت في حاجة لتكرار الكلام، فقفزوا على الخيل بدون تردد وذهبوا.

وسأل دارتنيان تابعة وهم يجرون "هل رأيت ما حدث لأتوس؟".

إني نظرت خلال النافذة يا سيدي ورأيته يرمي أحدهم بالرصاص ثم يهاجم الآخر بسيفه ولم أر ما كان يفعله صاحب الخان.

دارتنيان يصمم على السفر

ولما قارب دارتنيان وبلانشت كاليه لم يرحما نفسيهما ولا خيولهما. وسقط حصان دارتنيان قبل أبواب المدينة بمسافة قليلة، وكان من الواضح أنه ضياع للوقت محاولة إسعافه، ولما وقف حصان بلانشت كان من المستحيل أن يخطو خطوة أخرى بعد ذلك.

ومن حسن الحظ لم يكن هناك كثيراً، ولذلك قرر الاثنان أن يتركا الحصانين حيث كانا، وأسرعا إلى رصيف الميناء، وكان يسير أمامهما سيد وتابعه يسرعان نحو سفينة على وشك الإقلاع.

ووصل دارتنيان في الوقت المناسب ليسمع السيد يسأل هل في الإمكان أن يعبر البحر إلى انجلترا في الحال.

فأجابه الكابتن: هذا من السهل جداً، ولكن وصلت هذا الصباح أوامر تقول إنه لا يمكن لأحد أن يرحل بدون تصريح موقع من الكاردينال".

فقال السيد وهو يخرج ورقة مطوية من جيبه: "عندي هذا التصريح".

– "سوف آخذك بكل سرور إذا جعلت رئيس الميناء يفحصه ويوقعه".

فقال السيد: حسناً ومشى في الحال.

فأشار دارتنيان إلى بلانشت أن يتبعه ومشى في نفس الاتجاه كما لو كان ذاهبا ليوقع تصريحاً معه.

وكان ظاهراً أن الحاكم يسكن على ربوة تشرف على الميناء. وما أن اقترب الرجلان اللذان في المقدمة من مجموعة من الأشجار قريبة من منزل الحاكم حتى أسرع دارتنيان خطاه ولحق بالسيد.

- وقال: "أرجو المعذرة يا سيدي، ولكن يبدو أنك في عجلة".

- فأجاب السيد: "إني كذلك يا سيدي".

- فقال دارتنيان: "إني آسف لسماع ذلك لأني كذلك في عجلة، وأطلب منك إسداء خدمة لي".

- "أي خدمة؟".

- "اتركني أبحر أو لا".

- "إني آسف يا سيدي لأني وصلت الأول ولا أرى أي سبب لأن أكون الثاني مبحراً؟.

- فأجابه دارتنيان: "وإني آسف كذلك، ولكني وصلت الثاني وقررت أن أسافر في الأول".

- "يبدو أنك متشوق للعراك معي. مالي وما لسفرك".

"إني أريد تصريح السفر الذي معك إذ ليس معي تصريح لنفسي".

- "يبدو أنك تمزح".

- فأجابه دارتنيان: "إني لا أمزح عطني تصريحك من فضلك".

- فجرد السيد سيفه في الحال.

- فنادى دارتنيان قائلا: "بلانشت وهو يجرد سيفه في لمح البصر انتبه للتابع وأنا أنتبه للسيد".

- وفي ثلاث دقائق كان دارتنيان قد جرح السيد ثلاث مرات، وكان يصيحفي كل طعنة واحدة لأتوس! واحدة لبروتوس! واحدة لأراميس! وسقط السيد في الطعنة الثالثة وظن دارتنيان أن السيد قد مات أو أغمى عليه فانحنى ليأخذ التصريح، ولكن الرجل الجريح الذي لم يكن قد ترك سيفه طعن صدر دارتنيان طعنة مفاجئة صائحاً في صوت ضعيف: واحدة لك"!.

- فصاح دارتنيان: "والأخيرة لي أيضاً" وهو ينفذ سيفه خلال جسم الرجل ويثبته في الأرض.

- وأغمى على السيد في هذه المرة وأخذ دارتنيان التصريح وآره أنه باسم الكونت ذي وارد.

- وكان بلانشت مشغولا في خلال ذلك الوقت إذ لما كان قوياً وسريعاً فقد قفز على ظهر التابع وأرغمه على السقوط على الأرض وملأ فم الرجل بمنديل ليمنعه من الصراخ أو الصياح. وربطه إلى شجرة قريبة من مكان سقوط سيده بحزام الرجل نفسه وشريط كتفه.

فقال دارتنيان: "والآن لنسرع إلى الحاكم".

- فقال بلانشت وهو مضطرب: "ولكنك جريح يا سيدي".

- فقال دارتنيان وهو يضغط على الجرح بمنديله وضم عليه سترته الداخلية:

"ما هو إلا خدش فقط وسوف أعتني به عندما يكون لدي كفاية من الوقت".

وقدم دارتنيان نفسه في مقر الحاكم باسم الكونت دي وارد ففحص الحاكم التصريح ولما وجده صحيحاً وقعه بدون تردد وسلمه إلى دارتنيان.

وقال الحاكم بابتسامة: "يبدو أن صاحب الفخامة يحرص على عدم سفر شخص معين إلى انجلترا".

- فأجابه دارتنيان: "نعم إنه حريص على منع سيد معين اسمه دارتنيان، وقد ترك باريس بالأمس في صحبة أصدقاء ثلاثة في طريقهم إلى لندن".

- "هل تعرف هذا الشخص شخصياً"؟

- "أعرفه تماماً كما أعرف نفسي".

- "إذا وصفته لي فسأراقبه مراقبة دقيقة".

- فوصف دارتنيان بدون تردد الكونت دي وارد وتابعه ثم قال: "إن كابتن السفينة يريد الإقلاع في الحال" فمن ثم شكر الحاكم وانحنى وخرج من المنزل.

- وكان الكابتن في عجلة حقيقة، وقبل التصريح الممضي بدون سؤال، واستفهم فقط عما إذا كان الحاكم قد رأى الرجل الآخر.

فأجابه دارتنيان: "إنه لن يسافر اليوم ولتكون مستريحاً فسوف أدفع أجرة كل منا حتى لا نخسر شيئاً".

- وصعد دارتنيان وبلانشت إلى ظهر السفينة في لحظة، فقد كان الحظ في صفهم، وما أن بارحت السفينة الميناء حتى أطلق مدفع غروب الشمس وبه قف المرفأ مانعاً الإقلاع بعد ذلك.

– وكان دارتنيان لديه الوقت ليفحص جرحه ولم يكن خطيرا في الحقيقة إذ قد اصطدم طرف سيف الكونت دي وارد بأحد الضلوع "ولما كان المنديل والسترة ملتصقتين بالجرح فلم ينزف دماً.

– وحصل بلانشت على حشيتين ووضعهما على ظهر السفينة في نسيم المساء الرطيب. وبعد وجبة خفيفة ألفى السيد وتابعه نفسيهما على الحشيتين وناما نظراً لأنهما كانا منهمكين من التعب.

– ووصلت السفينة دوفر في الساعة العاشرة من الصباح الثاني. وقد كان السير ليلا بطيئاً نظراً لقلة الرياح، وعلى أي حال فقد كان هذا التأخير سبباً ليسترجع المسافران قوتهما، واستأجر دارتنيان حصانين في دوفر ولذلك لم يلق صعوبة في الوصول إلى لندن.

اكتشاف سرقة

وسأل دارتنيان عن باتريك خادم الدوق الأمين لدى وصوله إلى قصر الدوق. ولملازمة باتريك لسيده في سفره إلى فرنسا، فقد كان يتكلم الفرنسية الصحيحة. وأفهمه دارتنيان أنه وصل من باريس لأمر حياة أو موت، ولذلك فهو يطلب محادثة الدوق في الحال.

- "أخبر سعادته بأي اسم؟".

- قل "الشاب الذي تعارك معه على الجسر الجديد في إحدى الليالي".

- "هذا تقديم غريب".

- "سوف تجدها حسنة مثل أي تقديم آخر".

- "وتذكر الدوق حادثة الكوبري الجديد في الحال".

- وقال وقت أن غادر باتريك الغرفة "أرجو ألا يكون قد وقع مكروه للملكة".

- فأجابه دارتنيان: "وهو يعطيه رسالة الملكة لا أعتقد ذلك على أي حال هي في خطر عظيم ولا يمكن لأحد أن ينقذها منه إلا سعادتك فصاح يا للسماء! ما هذا الذي أقرؤه!".

- وجرى نحو الباب ونادى باتريك: "اعتذر لضيوفي وأخبرهم أن أموراً

في غاية الأهمية تستدعي انتباهي".

- وقال ملتفتاً إلى دارتنيان: "وأنت يا سيدي تكرم واتبعني".

- فتبع دارتنيان الدوق خلال ممرات كثيرة حتى وصل إلى غرفة صغيرة للجلوس.

- وما فتح الدوق الباب حتى التفت إلى دارتنيان قائلا: "ادخل وإذا كان لك حظ سعيد بمقابلة صاحبة الجلالة فاروي لها ما تشاهده هنا".

- ومضى الدوق عبر الغرفة إلى باب يختفي خلف ستارة حريرية ثقيلة، وفتح الباب وقاد دارتنيان في حجرة صغيرة شديدة الإضاءة بواسطة شموع كثيرة العدد. وكانت الحيطان مغطاة بستائر محلاة بخيوط من الذهب. وعلى الحائط في مواجهة الباب علقت صورة بالحجم الطبيعي لآن ملكة فرنسا. وكم كانت الصورة ناطقة بالحياة حتى أن دارتنيان شهق من الدهشة عند رؤيتها. وكان هناك كيس صغير على مائدة صغيرة تحت رسم الصورة.

- واقترب الدوق قليلا من المائدة وفتح الكيس. وأخرج منه قوساً كبيراً من الشرائط الزرقاء متوهجاً من كثرة الماسات.

- وقال هذه هي الماسات التي أقسمت على ألا تبرح ملكيتي وأنا حي إن الملكة أعطتنيها، وتطلبها الملكة ثانية، فلابد من إطاعة رغبة الملكة.

- وكان يتحسس الشرائط بماساتها بشغف وهو يتكلم. وكان على وشك وضع الحلية في الكيس عندما رآه دارتنيان يتحرك فجأة وتخرج منه صرخة خفيفة، فصاح دارتنيان: "ماذا حدث أيها اللورد؟".

- صاح بكنجهام: "يا للسماء! لقد اختفى شريطان بماستهما. هنا عشرة فقط حيث يجب أن يكون إثنا عشر".

- "ربما ضاعا منك أيها اللورد أو سرقا".

- فأجاب الدوق بحدة: "لابد أنهما سرقا، إني أرى يد الكاردينال في هذا الأمر، انظر فإن الشريطين قد قطعا".

- وأخذ الدوق يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً في تفكير عميق، ثم توقفت فجأة. وقال: "لقد وجدتهما. لم ألبس الماسات إلا مرة واحدة في حفلة أقامها الملك منذ ليلتين في قصر وندسور. وقد تصادقت الكونتيس ونتر معي، مع أنني كنت قد تشاجرت معها من قبل ولم تتظاهر بالصداقة إلا لتنضم إلى مجموعة أصدقائي وتشاركني في عدد من الرقصات. إني متأكد أنها إحدى عميلات الكاردينال. على فكرة متى ستقام حفلة باريس؟".

- "الاثنين القادم يا صاحب السعادة".

- الاثنين! إذن لدينا خمس أيام فقط. قال بتفكير. ثم أسرع إلى الباب وصاح: "باتريك أطلب سكرتيري وجواهرجي الخاص في الحال".

– وعندما ظهر السكرتير بعد لحظات قليلة كان بكنجهام جالساً إلى مائدة جانبية يكتب بسرعة.

– وقال الدوق: "مستر جاكسون خذ هذه الأوامر وأمر وابعث بهم في الحال بدون تأخير" وانحنى السكرتير بدون سؤال وأسرع ومعه الأوامر.

– والتفت بكنجهام إلى دارتنيان: "نحن في أمان في هذه الناحية إذا لم تكن الماسات قد أخذت إلى فرنسا فلن تصل إليها إلا بعدك".

– "كيف ذلك يا صاحب السعادة؟".

– "إني قد أعطيت أمراً ألا تغادر أي سفينة أي ميناء في انجلترا إلا بعد الإذن".

– ولم يستغرب دارتنيان مثل هذه الطرق إذ كان الكاردينال قد أصدر أوامر متشابهة ليمنعه من مغادرة فرنسا.

– ودخل الجواهرجي بعد لحظات قصيرة.

– فقال الدوق مستر أورلي انظر إلى هذه الماسات وأخبرني عن قيمة كل شريط.

– وأخذ الجواهرجي الحلية إلى مائدة وهناك فحص طريقة وضع الماسات.

- ثم قدر قيمة كل مجموعة من مجموعات الماس العشرة وكان يكتب ملاحظاته في كتاب صغير كان يحمله معه.

- وقال بعد قليل: "ألف وخمسمائة بستولات كل واحدة أيها اللورد":

- "كم تأخذ من الوقت لصنع بدلا من الاثنتين الناقصتين اللتان تراهما"؟

- "حوالي ثمانية أيام أيها اللورد".

- "سوف أعطيك ضعف القيمة إذا انتهيت من صنعهم بعد باكر".

- "سوف أبذل جهدي أيها اللورد".

- "هذا حسن ولكنه ليس كل شيء. لا استطيع أن ائتمن شخص آخر غيرك على هذه الماسات. وعلى ذلك فلابد من عملك في القصر، وبالإضافة لابد أن تعتبر نفسك يا عزيزي أورلي سجين عندي حتى تنتهي من عملك، واطلب مساعديك وما تحتاجه من مواد وسوف يشرف باتريك على تزويدك بكل ما تحتاجه".

- وقاد بكنجهام الجواهرجي إلى غرفة داخلية حيث كان عليه أن يعمل. وفي طرفي الدهليز وقفا جنديين من الحرس لديهم تعليمات بعدم السماح لأي شخص بالخروج أو الدخول إلا بأمر باتريك.

من أجل جلالتها فقط

وانتهى العمل في الشريطين الماسيين ظهراً بعد ثلاثة أيام، ولقد تأخر مستر أورلي نتيجة لصعوبة الحصول على ماسات موافقة على أي حال، فقد كان الشريطان في غاية الإتقان بحيث لم يستطع بكنجهام أن يميزها عن الأصليين. وفي الحال طلب دارتنيان وأخذه إلى الحجرة الصغيرة المؤدية إلى غرفة الجلوس الخاصة.

وقال: "ها هي الحلية التي أتيت لتأخذها. ولقد رأيت بنفسك إنني فعلت كل ما يمكن لإنسان عمله".

"كن واثقاً أيها اللورد أن سأقول كل ما رأيته وكل ما فعلته أنت. ولكن هل آخذ الماسات بدون الكيس؟".

"سيسبب لك هذا الكيس المتاعب. ومن ناحية أخرى فقد أصبحت له عندي قيمة مزدوجة، لأنه الشيء الوحيد الذي ترك لي، وسوف تقول إني احتفظت به".

ثم تردد بكنجهام ووقف لحظة ينظر إلى الوجه الجاسكوني الفخور الماثل أمامه ثم أكمل حديثه: "والآن هل هناك طريقة لأسدد ما أنا مدين لك به"؟.

فمد دارتنيان قامته ونظر إلى الدوق بنفس نظرته.

وقال: "أيها اللورد إني في خدمة ملك فرنسا، وبالتالي ملكتها. وما قمت به قد قمت به لجلالتها وجلالتها فقط".

فتمتم الدوق نحن نقول: "متكبر كاسكتلندي".

فقال دارتنيان: وكأنه يكمل أفكار الدوق ونحن نقول: "متكبر كجاسكوي: إن الجاسكونيين هم اسكتلنديين فرنسا".

فقال الدوق: "كما تحب والآن انتبه إليَّ لحظة. اذهب إلى رصيف الميناء على هذه الناحية من التيمس واسأل عن سفينة اسمها "سكد" وسلم هذا الخطاب إلى قبطانها وهو سوف يأخذك إلى سانت فاليري. وهي ميناء فرنسية صغيرة حيث يرسو بك ولا يستقبلك عملاء الكاردينال وتذهب فور وصولك إلى الخان. وليس لها اسم. ولكن ستعرفها إذ ليس هناك غيرها فهي الوحيدة، واسأل عن صاحب الخان وقل له كلمة السر إلى الأمام بالفرنسية".

– ثم ماذا؟

– "سيزودك بحصان مستعد ومجهز بمسدسات محشوة. وسوف يخبرك عن الطريق الذي ستتبعه، واتبع تعليماته. وستجد ثلاثة آخرين خلال الطريق يمكنك الاعتماد عليهم. وفي كل مكان أرجوك أن تسدي إلى خدمة بتركك عنوانك في باريس حيث يرسل إليك فيما بعد كل

حصان تركته. وأنت قد رأيت خيولي فلن تكون متكبراً لترفض حصاناً لك. ولتطلب من كل من أصدقائك قبول الخيول الآخرين".

فقبل دارتنيان بدون تردد وشكر الدوق، وطلب الرحيل في الحال، وأسرع خارجاً ليصل إلى رصيف الميناء في أقرب وقت.

ولم يلاقي صعوبة في العثور على "سكد". وقد كان القبطان جاهزاً ومنتظراً أحد المسافرين واقلع حال أن قرأ رسالة الدوق.

وكان هناك حوالي الخمسين سفينة منتظرة الإقلاع، ولكن الدوق رفض توقيع التصاريح إلا في اليوم التالي.

وفي صباح اليوم التالي وصل دارتنيان إلى سانت فاليري وذهب في الحال ليبحث عن الخان. وقال له صاحب الخان: "اذهب إلى نيوشاتل وعند الثعلب الذهبي استعمل نفس كلمة السر وفي ذلك الخان سوف يزودونك بحصان في جودة هذا الحصان".

– "هل هناك شيء أدفعه؟".

– "لا دفع كل شيء ودفع بكرم كذلك".

واتبع دارتنيان ما عنده من تعليمات في نيوشاتل. ولكن سأله صاحب الخان عن عنوانه في باريس فأعطاه دارتنيان الآتي:

م دارتنيان. مقر القيادة العليا لحرس الملك تحت قيادة م ديسارت باريس. فقال صاحب الخان: "أشكرك والآن اتخذ الطريق المؤدي إلى روبين وقف في القرية الصغيرة إيكوي عند درع فرنسا، وهناك ستجد حصاناً آخر ينتظرك نفس كلمة السر".

– "تماماً"!.

– وتم كل شيء في إيكوي حسب الترتيبات. فاستبدل دارتنيان حصانه وترك عنوانه في باريس. وأخذ تعليمات عن الطريق الذي يتبعه. وكانت المحطة التالية في بونتواس. وهناك استبدل دارتنيان حصانه للمرة الأخيرة. ودخل باريس قبل التاسعة صباحاً، وكان قد أتم الرحلة على الأرض في اثني عشر ساعة. وفي خلال ساعة من وصوله زار دارتنيان م دي تريفيل، فحياه قائد الفرسان أمام زواره الآخرين كما لو كان رآه في نفس اليوم. ولكنه صافحه بشيء من الحرارة وبنظرة واحدة إلى وجه دارتنيان علم أن كل شيء على ما يرام.

وقال بنظرة ذات معنى: "لقد رجع أتوس وأصدقاؤه. رجعوا من أجازاتهم وهم يؤدون عملهم مع فرقتهم في اللوفر. ويقوم م ديسارت وحرسه بمهمة خاصة في قاعة المدينة استعداداً للحفلة هذه الليلة. لابد أن تلبس زيك في الحال وتقابل م ديسارت وهو في مقر قيادته ينتظره".

وعندما استدار دارتنيان ليرحل صاحبه م دي تريفيل حتى قمة السلم الرئيسي وقال بصوت منخفض حتى لا يسمعه أحد:

لقد سببت الضرائب الجديدة متاعب كثيرة ويبدو أن من المستحيل تحصيلها والكاردينال ثائر. والتوتر يسود البلاد كلها. وقد قام شغب فعلا في ميناء "روشيل" ويقوم الأهالي ضد الفرسان. فلابد من إرسال الحرس لقمع الثورة فسوف نرحل إلى روشيل في خلال يوم أو يومين وفي خلال ذلك سيكون من التهور أن تنام في مقر قيادة فرقتك. ولذلك لتقنع جواسيس الكاردينال أن تنشر أنك تقوم باستعداد للرحيل.

الحفلة الخطيرة

يوم أن وصل دارتنيان إلى باريس كانت الحفلة التي سيقيمها صاحبا الجلالة حديث المدينة كلها. وابتدأ الضيوف في الوصول من السادسة مساء. وهؤلاء كانوا أناساً غير مهمين أتوا ليروا الآخرين لا ليكونوا محط الأنظار. وقيدوا إلى أماكنهم في القاعة الرئيسية.

ووصل في التاسعة موظفو المدينة الرسميون وزوجاتهم. وهؤلاء جلسوا في طرف القاعدة البعيدة الذي يواجه المقصورة حيث ستجلس الملكة ومن يصاحبها من السيدات، ووصل صاحب الجلالة في أبهى حلة رسمية والساعة تعلن منتصف الليل. وبعد كلمات الترحيب من عمدة باريس دخل الملك في حجرة خاصة لانتظار حضور الملكة. ولاحظ كل الناس أن الملك يبدو كئيباً ومفكراً.

وبعد قليل أعلنت الطبول وصول صاحبة الجلالة وسيدات الشرف، فصمتت حركة الكلام والضحك الخفيف والتفتت كل العيون نحو المدخل. وأطل وجه الكاردينال الشاحب من خلف ستارة المقصورة. وثبتت عيونه على الملكة وبدت ابتسامة، ابتسامة ماكرة على وجهه. فقد كانت الملكة لا تلبس حلية الماسات.

وتهادت الملكة في سيرها عبر وسط القاعة العظيمة، وكانت تنحني وتبتسم ذات اليمين والشمال للجمع. وكان يبدو عليها السرور، وما أن

وصلت إلى المقصورة حتى جاء الملك خلال الستائر ليستقبلها. وكان معه الكاردينال الذي بدى أنه يكلمه في صوت منخفض، واتخذا صاحبا الجلالة أماكنهما في المقصورة ليستقبلا ترحيب موظفي المدينة الرسميين وتقديم نبلاء الريف إليهم.

وكان قد تم ترتيب، أنه قبل الرقص ينسحب صاحبا الجلالة إلى غرف خاصة ليغيرا معاطفهما، وكانا على وشك الخروج عندما التفت الملك إلى الملكة وسألها "لماذا لم تلبسي الحلية هدية عيد ميلادك كما وعدت: "وكان صوته يرتعش من الغضب المكتوم. فأجابت: مولاي كنت أخشى وقوع حادث لها في حشد كبير كهذا إذ ربما ضاع شريط أو شريطان منها".

إنك مخطئة يا سيدتي فما أهديتك إياها إلا لأسر برؤيتك ترتدينها في مثل هذه المناسبة".

فأجابت الملكة: "سوف أرسل إلى اللوفر لأحضرها، وبذلك تكون رغباتك مطاعة".

افعلي ذلك بسرعة يا سيدتي. فإن الرقص سوف يبتدئ في خلال نصف ساعة".

فانحنت الملكة لتحيته. ثم غادرت المقصورة هي ومن صاحبها من سيدات إلى غرفة الملابس الخاصة. وبينما كان الملك يغير ملابسه في

حجرته دخل الكاردينال وسلمه كيساً صغيراً وفتح الملك الكيس وشاهد شريطين مرصعين بالماس يشبهون تماماً الحلية التي أعطاها إلى الملكة.

فسأله ماذا يعني هذا"؟

فأجابه الكاردينال: "لا شيء يا مولاي. غير أنه إذا لبست الملكة الحلية– وذلك ما أشك فيه– فعد الشرائط فإذا وجدتها عشرة فاسأل جلالتها ماذا فعلت بالشريطين الآخرين"؟.

وقبل أن يسأله الملك– ابتدأت الموسيقى الرقصة الأولى التي كان سيفتتحها أصحاب الجلالة.

وإذا كان هو السيد الأول في المملكة فإن الملكة كذلك كانت بدون شك أجمل سيدة في فرنسا، وكان يتلألأ على كتفها مجموعة من الماس.

فاهتز لويس الثالث عشر من الفرح ولم يستطع الكاردينال أن يخفي استياءه، ولم يكن قريباً ليحصي الشرائط فقد كانت الملكة تلبس الماسات على أي حال. أما عدد الشرائط فليس يهمه أكانت عشرة أم اثني عشر.

وبعد الرقصة الأولى قاد الملك الملكة إلى حجرة المرطبات.

وقال: "أشكرك يا سيدتي على احترامك لرغباتي، وأعتقد على أي حال أن هناك شريطين ماسيين ناقصان، ولذلك ارجعتهما لك".

وأثناء قوله هذا، أمسك لها الكيس المحتوي على الشريطين الماسيين الذي أعطاه إياه الكاردينال.

فصاحت الملكة كما لو كانت مندهشة: "كيف يا مولاي، أتعطيني اثنين آخرين؟ إذن سيكون لدي أربعة عشر".

وفي الحقيقة كان الملك يحصي الماسات على كتف الملكة ويعيد إحصاءها فيجدها اثني عشر، فقال الملك للكاردينال بحدة: "ما يعني هذا يا سيدي؟".

فقال الكاردينال في صوت هادئ لم يستطع إخفاء غضبه تماماً: "إنه يعني يا مولاي أني رغبت أن أهدي جلالتها ماستين إضافيتين. ولما لم أجرؤ أن أقدمهما بنفسي فقد سلكت هذه الطريقة".

فقالت الملكة وهي تنظر إلى الكاردينال في وجهه: "إني أكثر من شاكرة يا صاحب الفخامة". ثم أكملت حديثها بابتسامة ذات مغزى "لأني متأكدة أن هذين الشريطين قد كلفاك ما كلفته الحلية كلها".

ثم طلبت من مرافقاتها وهي تنحني تحية للملك أن يقدنها إلى حجرتها الخاصة لتستريح قبل الرقصة التالية.

وما أن بارحت الملكة القاعة حتى شعر دارتنيان الذي كان في الخدمة من المدخل الرئيسي حتى قاعة الحفلة، شعر بشخص يلمس كوعه، وعندما استدار شاهد مدام بوناسيو التي أشارت له أن يتبعها وقادته خلال باب جانبي وأسرعت عبر ممرات كثيرة. وفي نهاية ممر جانبي أشارت له أن يظل صامتاً، ثم أزاحت إحدى الستائر الثقيلة جانباً. وفتحت قفل باب وأمسكت يده وجذبته بلطف وبسرعة في داخل غرفة صغيرة غير مضاءة. وأغلقت الباب بالقفل، وهمست له أن يظل مكانه ولا يحدث صوتاً مهما حدث. ومن خلف ستارة حريرية فتحت باباً داخلياً ودخلت خلاله وتركته مفتوحاً.

وكانت الغرفة من الناحية الأخرى ساطعة الضوء، وسمع دارتنيان عدة سيدات يتكلمن ويضحكن معاً، وكان من الواضح أنه في حجرة مجاورة لحجرة خاصة براحة الملكة نظراً للهجة الكلام المحترمة والصافية ولسماعه كلمة يا صاحبة الجلالة تردد كثيراً.

وكان دارتنيان ينظر إلى الستارة التي تخفي الباب المفتوح وراءها، وجعل يستمع في الظلام ويتعجب مما سوف يحدث بعد ذلك. وكانت الملكة تبدو مرحة ومسرورة، مما أثار عجب السيدات لأنهن اعتدن رؤيتها حزينة ومهمومة دائماً.

وسرعان ما عرف دارتنيان صوت الملكة بلهجتها الأجنبية، وسمعها تقترب من الباب المفتوح مرتين، ثم رأى ظلها على الستارة وفي نفس

اللحظة امتدت يد وذراع خلال الستارة، وفهم في الحال أنها جائزته. فركع على ركبته وأخذ اليد في يديه وقبلها بشفتيه باحترام. وبسرعة وبسكون انسحبت اليد تاركة في يده خاتم ماسي، وبعد مدة قصيرة سمع الملكة وسيداتها يغادرن الغرفة إلى حلبة الرقص حيث ابتدأ الرقص ثانية. ثم حضرت مدام بوناسيو في سكون وفتحت قفل الباب المؤدي إلى الممر.

وقالت تهمس: "لاتفه بكلمة ولا بصوت ارجع من حيث أتينا".

ودفعته ساعة أن انتهت من هذه الكلمات إلى الخارج بلطف. وأغلقت قفل الباب في الحال وراءه.

تهديد ووعيد

واجتمع الرفقاء الأربعة في الصباح التالي في فيركون ليتناولوا طعام الفطور حسب الاتفاق. وهناك في حجرة خاصة جعلوا يذكرون مغامراتهم لبعضهم ومدحوا طويلا في الخيول التي أعطاها إياهم بكنجهام، وبعد ذلك مر عليهم يداً بيد خاتم ماسي مدحوه كثيراً، وقبل أن يغادروا الغرفة دخل بلانشت ومعه مظروف مربع كبير ولم يترك الخاتم الأحمر الكبير شك في مصدر الخطاب الذي بالداخل ونظر الرفقاء الأربعة إلى بعضهم البعض في صمت لمدة دقيقة أو دقيقتين.

فقال دارتنيان وهو يفتح المظروف: "حسناً دعنا نر ماذا يقول صاحب الفخامة ولم يكن المظروف يحتوي على خطاب بل على بطاقة ذات حافة ذهبية وكان عليها، ننتظر تشريف م دارتنيان من حرس الملك بقيادة مدام ديسارت في قصر صاحب الفخامة الكاردينال ريشيليو الساعة الثامنة هذا المساء.

لاهور دينيار– قائد حرس القصر

فقال بورتوس: "لا اعتقد أن الكادرينال يدعوك للعشاء".

فقال أراميس: "يبدو عليها أنها دعوة إلى الباستيل".

فقال دارتنيان بثقة الشباب: "إن هذا لا يقلقني فانا متأكد أنكم ستخرجوني من هناك".

فقال أتوس بهدوء: "أعتقد أنه يكون من الأحسن ألا نتركه يذهب إلى هناك".

أولا هناك ثلاثة أبواب للقصر أليس كذلك؟ دعنا كل منا ينتظر أمام كل باب ومعه ثلاثة أو أربعة من الفرسان طالما دارتنيان في القصر ولابد أن نوقف كل عربة مقفولة تحاول أن تغادر القصر وتفتيشها وإذا حاول حرس صاحب الفخامة التدخل معنا فستكون فرصة عظيمة لنرد لهم المتاعب التي سببوها لنا منذ أيام قليلة. ماذا تقولون في هذه الخطة؟ فردوا عليه جميعاً بسرعة "عظيمة".

وقرروا بدون تردد أن يمتطوا جيادهم ويسلحوا تسليحاً تاماً، ولذلك سوف يمكنهم من أن يحملوا مسدساتهم ويطاردوا أي عربة مقفلة تمتنع عن الوقوف، وقرر بورتوس الذي كان غير مشغول بقية اليوم أن يجمع حوالي اثني عشر فارساً من الفرسان ورجال الحرس ويقابل أصدقاءه في ميدان القصر في الساعة السابعة والنصف مساء، وعلى ذلك غادر الأربعة الخان وافترقوا كل لعمله في ذلك اليوم.

ثم أخبر دارتنيان قائد الفرسان عن دعوة الكاردينال وعن ترتيباتهم الخاصة التي اتخذوها للمراقبة. فأقر م دي تريفيل بحرارة الخطة التي

اتخذوها وأكد له أنه إن لم يظهر في خلال وقت معقول فإنه سيتخذ الإجراءات لمعرفة ما حدث.

وقابلوا على ناصية ميدان القصر بوروتوس ومعه اثنا عشر فارساً، ومعهم أتباعهم وكلهم ممتطون جيادهم وروحهم عالية.

وانصرف أتوس وبورتوس وأراميس، كل معه أربعة من الفرسان وأتباعهم ليحرسوا الثلاث بوابات كالمتفق عليه وعبر دارتنيان ومعه بلانشت الباب الرئيسي إلى ساحة القصر وعند المدخل الرئيسي ترجل دارتنيان وأسلم قياد حصانه إلى تابعه واتخذ طريقه إلى القصر.

وقاد أحد الأتباع دارتنيان خلال حجرات انتظار ثم عبر ممر مغطى بسجاد أحمر كثيف، وطرق التابع باب المكتبة وانتظر برهة ووجد دارتنيان نفسه في حضرة صاحب الفخامة الكاردينال ريشيلو لأول مرة في حياته.

وكان الكاردينال جالساً إلى مكتبه صامتاً وناظراً بثبات إلى دارتنيان لعدة لحظات ولم يكن أحد مثل الكاردينال في نظراته الفاحصة، ولذلك كان دارتنيان غير مرتاح. لذلك على أي حال فقد حافظ على سكونه وانتظر باحترام حتى يتكلم الكاردينال.

فسأله الكاردينال: "هل أنت دارتنيان من جاسكوني"؟.

- فأجابه دارتنيان "نعم يا صاحب الفخامة".

- فقال الكاردينال: "هناك عائلات كثيرة تحمل نفس الاسم لأيها تنتسب"؟.

- "أنا ابن ذلك الذي خدم بإخلاص الملك هنري والد صاحب الجلالة".

- "حسناً أعتقد أنك غادرت مسقط رأسك منذ سبعة أو ثمانية شهور لتبحث عن مورد رزق في باريس أليس كذلك؟".

- "نعم يا صاحب الفخامة".

- "واعتقد كذلك أنك لاقيت متاعب خفيفة عند ميونخ".

- فابتدأ دارتنيان: "يا صاحب الفخامة إني..".

- فقاطعه الكاردينال بابتسامة تدل على أنه يعرف تماماً ما حدث: "لا تهتم بالتفاصيل إن أباك أعطاك خطاب توصية إلى م دي تريفيل أليس كذلك؟"

- نعم يا صاحب الفخامة. "ولكن عند ميونخ".

- فأضاف الكاردينال: "فقدت الخطاب. نعم إني أعلم ذلك، على أي حال فقدمك م دي تريفيل في فرقة الحرس تحت قيادة أخيه م ديسارت. وتركك تأمل أن تصبح في يوم ما فارساً".

- "تماماً يا صاحب الفخامة".

- وقد وقع لك أحداث كثيرة خلال الأشهر القليلة التي قضيتها في باريس.

"كنت تسير في أحد الأيام مع أصدقائك قرب مقبرة ديشو حيث كان لمنفعتك أن تكون في مكان آخر. وحديثاً ذهبت أنت وأصدقاؤك لتتناولوا مياه فورج المعدنية وقد توقفوا في الطريق لأسباب عديدة. ولكنك استمررت في طريقك، وكل هذا بسيط، وقد ذهبت لتزور شخصاً بارزاً في انجلترا".

- "يا صاحب الفخامة أنا...".

- فقاطعه الكاردينال: "لا تتعب نفسك بالشرح فإن مهمتي أن أعرف هذه الأمور وقد كانت زيارتك ناجحة. وعند عودتك كان لك الشرف لتحظى بمقابلة شخصية هامة وأنا مسرور جداً لرؤيتك ترتدي الهدية التي أعطتها لك. إن شخصاً آخر غيرك كان لابد أن يبيعها في الحال".

- فلاحظ دارتنيان أنه لا يزال يلبس هدية الملكة وقد كان الوقت متأخراً لمحاولة إخفاء حجر الماس.

- فقال الكاردينال بابتسامة معلومة: "سوف لا أضيع الوقت في سرد كيفية قضائك لوقتك وخصوصاً قريباً جداً. وعلى أي حال فإني أشعر أنك مدين لي بالشكر لتركي إياك حراً طول ذلك الوقت".

- فانحنى دارتنيان باحترام ولكنه كان يرتجف في الداخل لما يمكن أن تخفيه هذه الكلمات فاستمر الكاردينال "لقد كنت صبوراً معك لأني رتبت خطة لمستقبلك.

- فنسى دارتنيان أن ينحني تحية المعروف لدهشته.

- فقال الكاردينال مشيراً إلى كرسي "اجلس هناك أمامي يا م دارتنيان".

وركن الكاردينال كوعه الأيمن على المكتب واستند بخده على يده اليمنى وابتدأ يقول "إنك شاب شجاع. وما هو أهم أنك متهور. على أي حال فإنك صغير ودخلت العالم تواً. فليس هناك حاجة لأذكرك أن تخلق أعداء بسهولة ولن يترددوا في تدميرك إذا ما تدخلت في أمورهم".

- وسكت لحظة ليجعل المعاني التي تختفي وراء الكلمات تأخذ مفعولها الكلي.

- فقال دراتنيان في منتهى الصراحة "واأسفاه يا صاحب الفخامة ماذا يمكنني أن أفعل وأنا لست مجرباً؟.

- "إنك فعلت كثيراً بالرغم من عدم خبرتك وتبدو إن لم أكن مخطئاً أنك في حاجة إلى إرشاد ما دمت قد حضرت إلى باريس بحثاً وراء الثروة".

- "إني في عمر الأحلام الذهبية يا صاحب الفخامة".

- "إن الأحلام الذهبية ليست إلا للحمقى ولكنك شاب تفهم. والآن ما رأيك في ترقية إلى رتبة ضابط في حرسي، ثم ترقية إلى قيادة فرقة من الحرس بعد القتال في روشيل".

- "يا صاحب الفخامة".

- "إنك تقبل أليس كذلك"؟.

- فقال دارتنيان وهو في غاية الضيق: "يا صاحب الفخامة".

- فصاح الكاردينال في دهشة "ماذا؟ أترفض"؟.

- "إني في حرس جلالة الملك وليس هناك ما يدعوني لعدم الرضاء".

- "أليس حرسي في خدمة صاحب الجلالة كذلك"؟.

- "إنك أسأت فهم كلامي يا صاحب الفخامة".

– ربما أنت في حاجة إلى عذر مقبول كمبرر لقبولك؟ فهمت. حسناً. يمكنك أن تقول للعالم أن هناك ترقية عاجلة ووعد بترقية أخرى بعد مسألة روشيل. أما من جهتك فتحتاج إلى حماية. وأظن أنه لابد أن أقول لك إني استلمت تقارير كثيرة وشكاوى جدية ضدك ويبدو منها أنك لا تقضي أيامك ولياليك كلها في خدمة صاحب الجلالة والآن هل لا تزال ترفض"؟.

– "إن فضلك يغمرني يا صاحب الفخامة، ولكن إذا سمح لي بالكلام بحرية فأنا....".

فقاطعه الكاردينال "نعم بكل تأكيد".

– "إذن فلن أخفي عليك يا صاحب الفخامة أن كل أصدقائي في فرسان صاحب الجلالة وحرسه وكل أعدائي في خدمة فخامتكم. والآن فمن الواضح أني لن يرحب بي أحد وسأكون محتقراً إذا قبلت ما يعرضه على فخامتكم".

– فسأله ريشيليو بحدة "هل تظن بطريقة ما أن عرضي ليس من مرتبتك؟.

– على العكس يا صاحب الفخامة فإني اعتبر نفسي لا أستحق فضلكم. فبعد أيام قليلة سوف أحارب تحت النار في روشيل. وسأكون محارباً تحت رعاية ورقابة فخامتكم. فإذا كان من حظي السعيد أن أسلك

طريقاً يستحق التفاتكم فسيكون لدي على الأقل ما يبرر حماية فخامتكم التي تكرموني بها. وكذلك سوف لي الحق في عرض خدماتي في حين أبي أبيعها الآن".

– فقال الكاردينال وصوته يظهر قلقه ولو أنه لا يخفي احترامه لولاء دارتنيان: "هذا يعني أنك ترفض خدمتي. ابق حراً واحتفظ حينئذ بأصدقائك وأعدائك".

– "يا صاحب الفخامة...".

– واستمر الكاردينال: "ودعني انصحك. احترس على نفسك. فمن اللحظة التي استحب فيها حماية يدي فلن تساوي حياتك عندي خردلة".

– فقال دارتنيان وانحنى.

– يا صاحب الفخامة: "سأظل طول حياتي أتذكر كلماتك بالشكر".

– فقال الكاردينال ببطء وبتفكير "سوف نرى م دارتنيان. سوف نرى. سوف أراقبك وأراقب عودتك من المعركة لنصفي ما بيننا".

– ففهم دارتنيان التهديد المخيف وراء هذه الكلمات فقال: "يا صاحب الفخامة" أنا... فقاطعه الكاردينال: "أيها الشاب إذا استطعت في المستقبل أن أمنحك هذا العرض الذي قدمته اليوم فسأفعل. لا أعدك

بأكثر من هذا فإن مستقبلك بين يديك "وقبل أن يستطيع دارتنيان أن يقول شيئاً صرفه الكاردينال بإشارة من يديه فتردد دارتنيان لحظة ثم انحنى وغادر المكتبة.

وعند الباب الرئيسي وجد دارتنيان أتوس وأصدقاءه الأربعة وقد ابتدأوا أن يقلقوا وأسرع بلانشت إلى البابين الأخريين وأخبر المراقبين بظهور سيده سالما.

وأرسل دارتنيان بلانشت إلى م دي تريفيل ليقول له إن كل شيء على ما يرام، ثم شكر أصدقاءه الفرسان على مساعدتهم، وركب الأصدقاء الأربعة ساكتين في طريقهم إلى فيركون. وهناك في حجرة خاصة طالما استعملوها وأمامهم زجاجة من الخمر- سرد دارتنيان تفاصيل ما دار بينه وبين الكاردينال.

- فقال أراميس بدون تردد: "كنت محقاً تماماً في رفضك".

- وأضاف بورتوس "وأنا موافق".

- وجلس أتوس في سكون مفكراً بعض الوقت قبل أن يتكلم.

- وقال بهدوء: "إنك فعلت ما كان يجب أن يفعل، على أي حال ربما كنت مخطئاً في عملك هذا".